

الآيات

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ يُسْرِدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير

شرك أهل الكتاب:

كان الكلام في الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب وقد حدد الإسلام لهم شروطاً ليعيشوا بسلام مع المسلمين، فإن لم يفوا بها كان على المسلمين أن يقاتلوهم.

وفي الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا

سيما اليهود والنصارى منهم، ليتّضح أنّه لو كان بعض التشدد في معاملتهم، فإنّما هو لإنحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة، ونوع من الشرك في العبادة.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون».

* * *

بحوث

١ - من هو عزيز؟!

«عزيز» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود، ولما كانت العرب تغيّر في بعض الكلمات التي تردها من لغات أجنبية وتجري على لسانها، وذلك كما هي الحال في إظهار المحبة خاصّة فتصغر الكلمة، فصغرت عزرا إلى عزيز، كما بدلت كلمة يسوع العبرية إلى عيسى في العربية، ويوحنا إلى يحيى.^(١)

وعلى كان حال، فإن عزيزاً - أو عزرا - له مكانة خاصّة في تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لأمة اليهود باني مجدهم وفي الواقع فإنّ له خدمة كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً فسي واقعته المشهورة، وجعل مدّنتهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجيء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالي قرن.

ولما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه

١ - المراد من التصغير عادةً هو بيان كون الشيء صغيراً في قبال شيء آخر كبير، مثل رجيل المصغر عن رجل، لكن للتصغير أغراضاً بلاغية منها إظهار المحبة وغيرها، كما في إظهار الرجل محبته لولده ليصغر اسمه.

في اليهود فشفعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التوراة - ممّا بقي في ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به - من جديد.

ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحبي شريعتهم.^(١) وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم بـ «ابن الله» غير أنّه يستفاد من بعض الروايات - كما في الاحتجاج للطبرسي - أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراماً له لا على نحو الحقيقة.

ولكنّنا نقرأ في الرواية ذاتها أنّ النبي سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تُجلّون عزيزاً وتكرمونه لخدماته العظمى وتطلقون عليه هذا الاسم، فعلاً لا تسمّون موسى وهو أعظم عندكم من عزيز بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسألة جواباً وأطرقوا برؤوسهم)^(٢).

ومهما يكن من أمر فهذه التسمية كانت أكبر من موضوع الإجلال والإحترام في أذهان جماعة منهم، وما هو مألوف عند العامة أنّهم يحملون هذا المفهوم على حقيقته، ويزعمون أنّه ابن الله حقاً، لأنّه خلصهم من الدمار والضياع ورفع رؤوسهم بكتابة التوراة من جديد.

وبالطبع فهذا الاعتقاد لم يكن سائداً عند جميع اليهود، إلّا أنّه يستفاد أنّ هذا التصوّر أو الاعتقاد كان سائداً عند جماعة منهم، ولا سيما في عصر النبي محمّد ﷺ، والدليل على ذلك أنّ أحداً من كتب التاريخ، لم يذكر بأنّهم عندما سمعوا الآية آنفة الذكر احتجوا على النبي أو أنكروا هذا القول «ولو كان لبان».

وممّا قلناه يمكن الإجابة على السؤال التالي: أنّه ليس بين اليهود في عصرنا الحاضر من يدعي أنّ عزيزاً ابن الله ولا من يعتقد بهذا الاعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إليهم؟!

١ - يراجع في هذا الشأن الميزان، ج ٩، ص ٢٥٣، والمنار، ج ١٠، ص ٣٢٢.

٢ - نور الثقلين، ج ٦، ص ٢٠٥، حديث طويل نقلنا خلاصته معناه لا نصاً، وإذا أردتم المزيد راجعوا المصدر المذكور.

وتوضيح ذلك، أنه لا يلزم أن يكون لجميع اليهود مثل هذا الاعتقاد، إذ يكفي هذا القدر المسلم به، وهو أنه في عصر نزول الآيات على النبي محمد ﷺ كان في اليهود من يعتقد بهذا الاعتقاد، والدليل على ذلك كما نوهنا، هو أنه لم ينكر أي منهم ذلك على النبي والشيء الوحيد الذي صدر منهم - وفقاً لبعض الروايات - أنهم قالوا: إن هذا اللقب «ابن الله» إنما هو لإحترام عزيز، وقد عجزوا عن جواب لما سألهم وأشكل عليهم: لم لا تجعلون هذا اللقب إذاً لنبيكم موسى ﷺ؟! وعلى كل حال فمتى ما نسب قول أو اعتقاد إلى قوم ما، فلا يلزم أن يكون الجميع قد اتفقوا على ذلك، بل يكفي أن يكون فيهم جماعة ملحوظة تذهب إلى ذلك.

٢- لم يكن المسيح ابن الله

لا ريب أن المسيحيين يعتقدون أن عيسى هو الابن الحقيقي لله، ولا يطلقون هذا الاسم إكراماً وتشريفاً له، بل على نحو المعنى الواقعي له، وهم يصرون في كتبهم أن إطلاق هذا الاسم على غير المسيح بالمعنى الواقعي غير جائز، ولا شك أن هذا من بدع النصارى، والمسيح لم يدع مثل هذا الادعاء أبداً، وإنما كان يقول: بأنه عبد لله، ولا معنى أساساً لأن ننسب علاقة الأبوة والبنوة الخاصة بعالم المادة وعالم الممكنات بين الله وعباده أبداً.

٣- اقتباس هذه الخرافات

يقول القرآن المجيد في الآية محل البحث: أنهم - أي اليهود والنصارى - يضاهئون - أي يشبهون بانحرافاتهم - الذين كفروا والمشركين. وهذا التعبير يشير إلى أنهم مقلدون إذ كانوا يعتقدون بأن بعض الآلهة هو إله الأب، وبعضها إله الابن، وحتى أن بعضهم كان يعتقد بأن هناك إله الأم، وإله الزوج،

وقد لوحظت مثل هذه الافكار في جذور عقائد المشركين في الهند أو الصين أو مصر القديمة ثم تسربت إلى اليهود والنصارى.

وفي العصر الحاضر خطر عند بعض المحققين أن يوازن ويقارن بين ما في العهدين «التوراة والإنجيل وما يرتبط بهما» وبين عقائد البوذيين والبرهمانيين، فاستنتجوا أن كثيراً من معارف الإنجيل والتوراة تتطابق مع خرافات البوذيين والبرهمانيين تطابقاً ملحوظاً، حتى أن بعض الحكايات والقصص الموجودة في الإنجيل هي الحكايات والقصص ذاتها الموجودة في الديانة البوذية والبرهمانية.

وإذا كان المفكرون توصلوا اليوم إلى مثل هذه الحقيقة، فإن القرآن أشار إليها قبل أربعة عشر قرناً في الآية محل البحث.

٤- ما هو معنى «قاتلهم الله»

جملة وإن كان معناها في الأصل أن الله مقاتل إياهم وما إلى ذلك، لكن كما يقول الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس، إن هذه الجملة كناية عن اللعنة أي أن الله أبعدهم عن رحمته، فهو دعاء عليهم.

وفي الآية التالية إشارة إلى شركهم العملي في قبال الشرك الاعتقادي، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم في العبادة، إذ تقول الآية: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم».

«الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و«الرهبان» جمع راهب وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكب على العبادة.

ومما لا شك فيه أن اليهود والنصارى لم يسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، ولم يصلوا ولم يصوموا لهم، ولم يعبدوهم أبداً، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم

الله من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة.

وهذا المعنى وارد في رواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام إذا قالوا: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا، ولكنهم أحلّوا لهم حراماً وحزّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»^(١).

وفي حديث آخر، أن عديّ بن حاتم قال: وفدت على رسول الله ﷺ وكان في رقبتني صليب من الذهب، فقال لي ﷺ: يا عدي ألق هذا الصنم عن رقبتك، ففعلت ذلك، ثم دنوت منه فسمعتَه يتلو الآية «اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً» فلمّا أتم الآية قلت له: نحن لا نتخذ أئمتنا أرباباً أبداً، فقال: «ألم يحرموا حلال الله ويحلّوا حرامه فتتبعوهم؟ فقلت: بلى، فقال: فهذه عبادتهم»^(٢).

والدليل على هذا الموضوع واضح، لأنّ التقنين خاص بالله، وليس لأحد سواه أن يحل أو يحرم للناس، أو يجعل قانوناً، والشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يفعله هو اكتشاف قوانين الله وتطبيقها على مصاديقها. فبناءً على ذلك لو أقدم أحد على وضع قانون يخالف قانون الله، وقبله إنسان آخر دون قيد أو اعتراض أو استفسار فقد عبد غير الله، وهذا بنفسه نوع من أنواع الشرك العملي، وبتعبير آخر: هو عبادة غير الله.

ويظهر من القرائن أنّ اليهود والنصارى يرون مثل هذا الاختيار لزعمائهم، بحيث لهم أن يغيّروا ما يرونه صالحاً بحسب نظرهم، وما يزال بعض المسيحيين يطلب العفو من القسيس فيقول له القس، عفوت عنك! وكان - منذ زمن - موضوع صكوك الغفران رائجاً.

وهناك لطيفة أخرى ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّه لما كانت عبادة المسيحيين لرهبانهم تختلف عن عبادة اليهود لأحبارهم، فالمسيحيون يرون المسيح ابن الله

١ - مجمع البيان، ذيل الآية ونور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.

٢ - مجمع البيان، ذيل الآية.

واقعاً واليهود يطيعون أحبارهم دون قيد أو شرط، لذا فإن الآية أشارت إلى عبادة كل منهما، فقالت: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله».

ثم فصلت المسيح على حدة فقالت: «والمسيح ابن مريم».

وهذا التعبير يدل على منتهى الدقة في القرآن.

وفي ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، وهي أن جميع هذه العبادات للبشر بدعة، وهي من العبادات الموضوعة «وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون».

درس تعليمي:

إن القرآن المجيد يعلم أتباعه في الآية - محل البحث - درساً قيماً جداً، ويبيّن واحداً من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحق لأيّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، وجميع الطاعات يجب أن تكون في إطار طاعة الله، وإنما يصح اتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين الله، أيّاً كان ذلك الإنسان وفي أية مكانة أو منزلة. لأنّ الطاعة بلا قيد أو شرط مساوية للعبادة، أو هي شكل من أشكال الشرك والعبودية، إلاّ أنّه يا للأسف - بلي المسلمون - لبعد المسافة الزمنية - بالابتعاد عن تعاليم هذا الدستور الإسلامي المهم، وإقامه الأصنام البشرية، فستفرقوا وتغلب عليهم المستعمرون والمستثمرون، وإذا لم تتكسر هذه الأصنام البشرية فلا ينبغي أن تنتظر زوال هذه البلايا وسدّ الشغرات.

وأساساً فإنّ هذا النوع من الشرك أو العبادة الوثنية أخطر بكثير من عبادة الأصنام والأحجار في زمان الجاهلية، والسجود لها، لأنّ تلك الأصنام والأحجار ليس فيها روح حتى تستعمر عبيدتها، إلاّ أنّ الأصنام البشرية وبسبب غرورهم وعدوانهم يجزّون أتباعهم إلى الوبال والذلة والشقاء والانحطاط.

وفي الآية الثالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعي اليهود والنصارى، أو سعي جميع مخالفين الإسلام حتى المشركين، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقيم» الذي لا يعود عليهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآية: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون».

* * *

ملاحظات

١ - شبه الدين - دين الله - في هذه الآية وفي القرآن وتعاليم الإسلام بالنور، ونحن نعرف أن النور أساس الحياة والحركة والنمو والعمران على الأرض ومنشأ كل جمال.

والإسلام دين يحرك كل مجتمع إنساني نحو التكامل، وهو أساس كل خير وبركة.

كما شبه اجتهد الكافر بالنفخ بالأفواه وكم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخة؟ ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، وفي الواقع فإن محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله التي لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالاً ممّا ذكرته الآية.

٢ - ورد موضوع محاولة إطفاء نور الله في القرآن في موردين: أحدهما في الآية محل البحث، والآخر في الآية (٨) من سورة الصف، وفي الآيتين انتقاد للكفار ومحاولات أعداء الله اليائسة، إلا أن بين تعبيرَي الآيتين تفاوتاً يسيراً، إذ جاء التعبير في الآية محل البحث «يريدون أن يطفئوا» إلا أن الآية (٨) من سورة الصف جاء فيها التعبير «يريدون ليطفئوا».

وممّا لا شك فيه أن هذا التفاوت أو الاختلاف اليسير في التعبير القرآني لغاية بلاغية.

يقول الراغب في مفرداته موضحاً الفرق بين «أن يطفئوا» و«ليطفئوا»: إن الآية الأولى تشير إلى محاولة إطفاء نور الله بدون مقدمات، أما الآية الأخرى فتشير إلى محاولة إطفائه بالتوسل بالأسباب والمقدمات، فالقرآن يريد أن يقول: سواء توسلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبداً، وعاقبتهم الهزيمة والخسران.

٣ - كلمة «يأبى» مأخوذة من الإباء، ومعناه شدة الإمتناع وعدم المطاوعة، وهذا التعبير يثبت إرادة الله ومشيئته الحتمية لإكمال دينه وازدهاره كما أن التعبير مدعاة لإطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقاً! أن مستقبل دينهم لا بأس عليه، بل هو مؤيد بأمر الله.

المستقبل للإسلام:

الآية الأخيرة من الآيات - محل البحث - في نهاية المطاف تزف البُشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه - آنفاً - أن أعداء الإسلام لن يفلحوا في محاولاتهم ومناواتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»

والمقصود من الهدى هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة الجليّة التي وُجدت في الدين الإسلامي.

وأما المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذي أصوله حقّة وفروعه حقّة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أن الدين الذي محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقّة، وتاريخه حق جلي، لا بد أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الارتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُدُلِ الإعلام المضللة، وستزول كل العقبات والموانع والسدود

التي وضعت في طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإن دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدمه شيء أبداً، لأن الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

* * *

بحوث

١ - المراد «الهدى ودين الحق»

هذا التعبير الوارد في الآية محل البحث: «أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» بمثابة الدليل على انتصار الإسلام وظهوره على جميع الأديان، لأنه لما كان محتوي دعوة النبي الهداية، والعقل يدل على ذلك في كل موطن، ولما كانت أصوله وفروعه موافقة للحق، ومع الحق، وتسير في مسير الحق، ولأجل الحق. فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعاً.

وقد جاء عن أحد علماء الهند أنه سبر فكره في مطالعة مختلف الأديان فترة من الزمن، وانتهى أمره إلى اختيار الدين الإسلامي من بين جميع أديان العالم، ثم نشر كتاباً بالإنجليزية اسمه «لِمَ أسلمت؟» وبين فيه مزايا الدين الإسلامي على غيره من الأديان.

ومن أهم المسائل التي أثارت انتباهه - كما يقول - أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي له تاريخ ثابت محفوظ ويتعجب كيف اختارت أوروبا لها ديناً ترى إن من جاء به أجل من الإنسان وتعدّه ربّها، مع أن هذا الدين ليس له تاريخ دقيق.^(١)

إن مطالعة آراء الذين اعتنقوا الإسلام ديناً جديداً وعزفوا عن دينهم السابق، تكشف أنّهم كانوا في منتهى البساطة والغفلة والتضليل، بينما دلّتهم أصول الإسلام

وفروعه ذات الأدلة المحكمة إلى الدين الإلهي البعيد عن الخرافات كلها، والذي يتجلى فيه نور الحق والهداية.

٢ - انتصار المنطق أم انتصر القوة؟

هناك كلام بين المفسرين في كيفية ظهور الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الظهور أو الانتصار في أي شكل هو؟ قال بعض المفسرين: هذا الانتصار انتصار منطقي استدلالي فحسب، ويقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلاً، لأن الإسلام من حيث منطقته ودلائله لا يقاس به دين آخر.

غير أن التحقيق في موارد استعمال مادة «الإظهار» في قوله تعالى: «ليُظهره على الدين كله» يكشف أن هذه المادة غالباً ما تستعمل في القدرة الظاهرية والغلبة المادية، كما جاء في قصة أصحاب الكهف: «إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم»^(١) وكما نقرأ في شأن المشركين «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة»^(٢).

فمن البديهي أن الغلبة في مثل هذه الموارد ليست غلبة منطقية، بل هي غلبة عينية وفعلية، وعلى كل حال فمن الأفضل والأكثر صحة أن نعتقد بأن هذا الظهور والغلب ظهور مطلق - من جميع الجوانب - لأنه ينسجم ومفهوم الآية التي هي مطلقة من جميع الجهات أيضاً، فيكون المعنى أنه سيأتي يوم ينتصر فيه الإسلام انتصاراً منطقياً وانتصاراً ظاهرياً، في امتداد سيطرته ونفوذه المطلق، وحكومته العامة على جميع الأديان، وسيجعل جميع الأديان تحت شعاعه.

١ - الكهف، ٢٠.

٢ - التوبة، ٨.

٣- القرآن وظهور المهدي

إن الآية - محل البحث - عينها وبالألفاظ ذاتها، وردت في سورة الصف، كما وردت في أخريات سورة الفتح باختلاف يسير.

والآية تخبر عن حدث مهم كبير استدعت أهميته هذه أن تستكرر الآية في القرآن، وهذا الحدث الذي أخبرت عنه الآية هو استيعاب الإسلام للعالم بأسره. وبالرغم من أن بعض المفسرين فسر الانتصار - في الآية محل البحث - انتصاراً في منطقة معينة ومحدودة، وقد حدث ذلك فعلاً في عصر النبي ﷺ أو ما بعده من العصور للإسلام والمسلمين، إلا أنه مع ملاحظة أن الآية مطلقة لا قيد فيها لا شرط، فلا دليل على تحديد المعنى، فمفهوم الآية انتصار الإسلام كلياً - ومن جميع الجهات - على جميع الأديان، ومعنى هذا الكلام أن الإسلام سيهيمن على الكرة الأرضية عامة، وسينتصر على جميع العالم.

ولا شك أن هذا الأمر لم يتحقق في الوقت الحاضر، لكننا ندري أن هذا وعد من قبل الله حتمي وأنه سيتحقق تدريجاً، فسرعة انتشار الإسلام وتقدمه في العالم، والاعتراف الرسمي به من قبل الدول الأوروبية المختلفة ونفوذه السريع في أفريقيا وأمريكا، وإعلان كثير من العلماء والمفكرين اعتناقهم الإسلام، كل ذلك يشير إلى أن الإسلام أخذ باستيعاب العالم.

إلا أنه طبقاً للروايات المختلفة الواردة في المصادر الإسلامية، فإن هذا الموضوع إنما يتحقق عند ظهور المهدي ﷺ فيجعل الإسلام عالمياً.

ينقل العلامة الشيخ الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) الآية محل البحث عن الإمام الباقر ﷺ أنه قال: «إن ذلك يكون عند خروج المهدي، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد ﷺ».

كما ورد في التفسير ذاته عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا بر إلا أدخله الله كلمة الإسلام».

كما أن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية - في كتابه إكمال الدين - أنه قال: «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم». عليه السلام وهناك أحاديث أخرى بهذا المضمون وردت عن أئمة المسلمين عليهم السلام.

كما أن جماعة من المفسرين ذكروا هذا التفسير في ذيل الآية أيضاً. إلا أن المدهش أن كاتب «المنار» هنا لم يكتف برفض هذا التفسير المذكور آنفاً، بل ناقش الأحاديث في المهدي عليه السلام، وحاول أن ينكر بتعصبه الخاص جميع الأحاديث الواردة في شأنه، ولم يأل جهداً في التذرع بما لديه من الحجج الواهية ليقول: إن هذه الأحاديث لا يمكن قبولها بحال، ويزعم أن الاعتقاد بوجود المهدي من أفكار الشيعة، ومعتقداتهم، أو معتقدات من يميل إلى التشيع. ثم بعد هذا كله يرى صاحب «المنار» أن الاعتقاد بوجود المهدي مدعاة للتخلف والركود!

ومن هنا نرى أنه لابد أن نعالج - ولو باقتضاب - الروايات الواردة في شأن المهدي «عجل الله فرجه الشريف» وآثار هذا الاعتقاد في تقدم المجتمع الإسلامي، ومواجهة الظلم والفساد، ليُعلم أن التعصب إذا دخل من باب خرج العلم والمعرفة من باب آخر.

ومع أن صاحب المنار له باع طويلة في العلوم والمعارف الإسلامية، إلا أنه لنقطة الضعف التي ابتلي بها «التعصب الشديد» يقلب بعض الحقائق الجليلة وينكرها تماماً.

فقبل بضعة أعوام وجّه شخص من كينيا - يدعى أبا محمّد - سؤالاً إلى رابطة العالم الإسلامي في شأن المهدي المنتظر «عجل الله فرجه الشريف».

فأجابه مدير الرابطة، محمّد صالح القزاز، برّد يتضمّن تصريحاً بأن ابن تيمية يؤمن بالأحاديث الواردة في شأن المهدي أيضاً، وقد كتب هذه الرسالة خمسة علماء معروفين من أهل الحجاز جواباً على سؤال أبي محمّد الكيني.

وقد ورد في هذه الرسالة بعد ذكر اسم المهدي عليه السلام ومحل ظهوره «مكة» ما يلي: «عند ظهوره يكون العالم مليئاً بالفساد والكفر والجور، فيملأ الله به «المهدي» العالم عدلاً كما ملئ ظلماً وجوراً، وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عندهم النبي ﷺ في كتب الصحاح.

والأحاديث المتعلقة بالمهدي نقلها عدّة من أصحاب النبي ﷺ منهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيدالله، عبدالرحمن بن عوف، قرة بن أساس المزني، عبدالله بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبدالله، أبو أمامة، جابر بن ماجد، عبدالله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وأم سلمة.

فهؤلاء عشرون راوياً صحابياً رووا عن النبي في المهدي «عجل الله فرجه الشريف» وغيرهم كثير أيضاً، وهناك أحاديث كثيرة عن الصحابة أنفسهم ورد فيها الكلام عن ظهور المهدي «عجل الله فرجه الشريف» ويمكن أن تضاف هذه الروايات إلى الروايات الواردة عن النبي ﷺ، لأنّ ذلك «أي الكلام في المهدي» لم يكن مسألة اجتهادية ليتمكن الاجتهاد فيها، فبناءً على ذلك فإنّ الصحابة قد سمعوا هذا الموضوع من النبي ﷺ.

ثمّ تضيف الرسالة:

إنّ الأحاديث آنفة الذكر المروية عن النبي ﷺ مذكورة في كتب الحديث

الموافقون، غير أنه لو أخذ بمفهومه الواقعي لكان عاملاً تربوياً مهماً بناءً محرّكاً باعثاً على الأمل والرجاء.

ومما يؤيد هذا الكلام ما ورد عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام في تفسير هذه الآية: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض» إذ جاء أن المراد من الآية هو «القائم وأصحابه»^(١).

كما جاء في حديث آخر أنها، أي هذه الآية نزلت في المهدي عليه السلام. وقد عبرت هذه الآية عن الإمام المهدي وأصحابه بـ «الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

فبناءً على ذلك فإن تحقق هذه الثورة الإصلاحية بدون إيمان مستحكم يقضي على كل أنواع الضعف والتحلل وبدون عمل صالح يفتح الطريق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقق مستبعد جداً. والطالبون لهذا التحقق عليهم أن يزدادوا إيماناً ومعرفة، وأن يجتهدوا في العمل الصالح وإصلاح ذاتهم، وهؤلاء هم طليعة تلك الحكومة العالمية وأملها المشرق، لا من ركن إلى الظلم والجور

وليس المنتظر لتلك الحكومة الأشخاص الضعاف الهمة والجبناء الذين يخافون حتى من ظلهم.

ولا البطالون الساكتون عن الحق التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في محيطهم الفاسد. أجل ... هذا هو الأثر الإيجابي البناء لانتظار قيام المهدي عليه السلام في المجتمع الإسلامي.

الآيتان

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير

كنز الأموال:

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك،
إذ كانوا يعبدون الأخابار والرهبان من دون الله.
الآية الأولى محل البحث تقول: إِنَّ أَوْلَٰئِكَ مِثْلُ مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ
بالألوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم
المتناقضة المضطربة.

وإذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهمية هذا الدستور الإسلامي بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيداً، لأنّ الأزمات الاقتصادية التي أبتلي بها البشر نتيجة احتكار الثروة من قبل جماعة «أنانية»؛ وظهورها على صورة حروب وثورات وسفك دماء، غير خافٍ على أحد أبداً.

حتى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟

هناك كلام بين المفسرين في شأن الآية - محل البحث - فهل كلّ جمع للمال أو ادخار له يعدّ كنزاً، لأنّه زائد على حاجة الإنسان، فهو حرام وفق مفهوم الآية... أو أنّ الحكم خاصّ ببداية الإسلام وقبل نزول حكم الزكاة ثم ارتفع حكم الكنز بنزول حكم الزكاة...

أو أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولاً بحكم الكنز وإن جمع المال؟
في كثير من الروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام وروايات أهل السنة، يلوح لنا التفسير الثالث، ففي حديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أي مال أدّيت زكاته فليس بكنز»^(١).

كما نقرأ في بعض الروايات أنّه لما نزلت آية الكنز ثقل على المسلمين الأمر، فقالوا: ليس لنا أن ندخر شيئاً لأبنائنا إذاً، ثم سألوا النبي صلى الله عليه وآله فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلّا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بَعْدَكُمْ»^(٢).

أي أن جمع المال لو كان - بشكل عام ممنوعاً - لما وجدنا لقانون الإرث موضوعاً.

١ - المنار، ج ١٠، ص ٤٠٤.

٢ - المصدر السابق.

تحمى الفضة أو يُحمى الذهب، لا أنه يحمى عليه، كما يقال مثلاً: يحمى الحديد في النار.

ولعل هذا التعبير يشير الى إحراق الذهب والفضة الى درجة قصوى بحيث توضع النار عليها. إذ أن جعل الفضة والذهب على النار لا يكفي لأن تكون محرقة «للمغاية».

فالقرآن لا يقول: يوم تحمى في نار جهنم، بل يقول: يحمى عليها، أي توضع النار عليها لتكون في اسفل النار كيما تشتد حرارتها وهذا التعبير الحيّ يجسد شدة عذاب أولي الثروة الذين يكتزونها في يوم القيامة.



الآيتان

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ
زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ
عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ
سُوءٌ أَعْمَلُ بِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

التفسير

وقف القتال «الإجباري»:

لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلة حول قتال المشركين، فالآيتان -
محل البحث - تشيران إلى أحد مقررات الحرب والجهاد في الإسلام، وهو احترام
الأشهر الحرم.

فتقول الأولى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

فالله سبحانه إذا علم أن في عباده من ليس أهلاً للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه:
«والله لا يهدي القوم الظالمين».

* * *

بحوث

١ - فلسفة الأشهر الحرم!

كان تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة أحد الطرق لإيقاف الحروب الطويلة الأمد ووسيلة للدعوة نحو الصلح والدعة، لأن المحاربين إذا وضعوا أسلحتهم في هذه الأشهر الأربعة، وأخمدت نيران الحرب ووجدت الفرصة للتفكير، فمن غير المستبعد أن تنتهي الحرب ويحل السلام محلّه، لأنّ الشروع المجدد بعد إيقاف القتال وانطفاء نار الحرب في غاية الصعوبة، ولا تنسى أن المقاتلين في حرب فيتنام خلال العشرين سنة من الحرب كانوا يواجهون صعوبة كبيرة لإيقاف القتال خلال أربع وعشرين ساعة لبداية العام الميلادي الجديد، إلا أن الإسلام جعل لأتباعه قراراً بإيقاف القتال خلال أربعة أشهر، وهذا الأمر بنفسه يدل على روح السلام في الإسلام والمطالبة بالصلح.

إلا أن العدو إذا أراد أن يستغلّ هذا القانون الإسلامي، وأن ينتهك حرمة هذه الأشهر فعلى المسلمين أن يواجهوه بالمثل.

٢ - مفهوم النسيء وفلسفته في الجاهلية

«النسيء» على وزن «الكثير» من مادة «نساء» ومعناها التأخير ويمكن أن تكون هذه الكلمة اسم مصدر أو مصدرأ، وتطلق على ما يؤجل من إعطاء المال أو قبضه.

وكان عرب الجاهلية يؤخرون بعض الأشهر الحرم، فمثلاً كانوا ينتخبون شهر

٥٠ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

نفسه لأن خواص الأشياء بيد الله، فهو مسبب الأسباب. وقلنا بأن مثل هذه النسبة لا تنافي مسألة الاختيار وحرية إرادة الإنسان.



مركز تحقيقات كتاب وپښتو علوم اسلامي

الآيتان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا
مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

سبب النزول

جاء عن ابن عباس وآخرين أن الآيتين - محل البحث - نزلتا في معركة تبوك
حين كان النبي ﷺ عائداً من الطائف الى المدينة، وهو يهيم الناس ويعبؤهم
لمواجهة الروم.

وقد ورد في الروايات الإسلامية أن النبي لم يكن يبين أهدافه وإقدامه على
المعارك للمسلمين قبل المعركة لثلاث قع الأسرار العسكرية بيد أعداء الإسلام، أنه
في معركة تبوك، لما كانت المسألة لها شكل آخر، فقد بين كل شيء للمسلمين
بصراحة، وأنهم سيواجهون الروم، لأن مواجهة امبراطورية الروم لم تكن مواجهة
بسيطة كمواجهة مشركي مكة أو يهود خيبر، وينبغي على المسلمين أن يكونوا في

ونقرأ دعاء للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لأهل الشغور وحُماة الحدود، إذ تقول: «وأنسهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخداعة وامحُ عن قلوبهم خطرات المال الفتون».

ولو عرفنا قيمة الدنيا وحالتها شأن الآخرة ودوامها معرفة حقيقة، لوجدنا أنَّ الدنيا زهيدة بالمقارنة والموازنة مع الآخرة الى درجة أنَّها لا تحسب شيئاً ونقرأ حديثاً عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد يقول فيه: «والله ما الدنيا في الآخرة إلَّا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ثم يرفعا فينظر بيم ترجع»!

٣- هناك كلام بين المفسرين في المراد من قوله تعالى: «يستبدل قوماً غيركم» الوارد في الآي محل البحث فمن هم هؤلاء؟!

قال بعضهم: هم الفرس وقال آخرون: بل هم أهل اليمن. ولكلٍّ منهم أثره في تقدم الإسلام. وقال آخرون: إنَّ المراد بالنص السابق هم أولئك القوم الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وتقبلوا الإسلام، بعد أن نزلت الآيتان آنفتا الذكر.

الآية

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ
أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

التفسير

المدد الإلهي للرسول في أشد اللحظات:

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدو، وكما
أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكداً بعدة طرق، من ضمنها أنه لا ينبغي أن
تتصوروا أنكم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبي ﷺ فستذهب دعوته
والإسلام أدراج الرياح.

فالآية محل البحث تعقب على ما سبق لتقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾. ^(١)

١ - في هذه الجملة حذف من الناحية الأدبية، وكانت الجملة في الأصل: إن لا تنصروه ينصره الله. لأن الفعل الماضي

الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعذار الباطلة والحجج الواهية. كأن يقول أحدهم: إني مريض، ويقول الآخر: إني مبتلى بطفلي، ويقول الثالث: زوجي مُقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرابع: ياليتني كنت معكم لولا ضعف في عيني لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أترككم، وهكذا...

إلا أن على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلاً للإصلاح فينبغي إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.



مركز تحقیق کتاب و نشر علوم اسلامی

لا هذا ولا ذاك؟!!

وقد جنح البعض إلى الافراط إلى درجة أنهم أساءوا إلى مقام النبي ﷺ وساحته المقدسة، وزعموا أن الآيات المذكورة أنفاً دليل على إمكان صدور العصيان والذنب من قبل النبي ﷺ، ولم يراعوا - على الأقل - الأدب الذي رعاه الله العظيم في تعبيره عن نبيه الكريم، إذ بدأ بالعفو ثم تنى بالعتاب والمواخظة، فوقعوا في ضلال عجيب.

والإنصاف أنه لا دليل في الآية على صدور أي ذنب أو معصية من النبي ﷺ، وحتى ظاهر الآية لا يدل على ذلك، لأن جميع القرائن تثبت أن النبي سواء أذن لهم أم لم يأذن، فإنهم لم يكونوا ليساهموا في معركة تبوك، وعلى فرض مساهمتهم فيها لم يحلوا مشكلة من أمر المسلمين، بل يزدون الطين بلة، كما سنقرأ في الآيات التالية قوله تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾.

فبناءً على ذلك فإن المسلمين لم يفقدوا أية مصلحة بإذن النبي لأولئك بالإنصراف، غاية الأمر أنه لو لم يأذن النبي ﷺ لهم فسرعان ما ينكشف أمرهم ويعرفهم المسلمون، غير أن هذا الموضوع لم يكن من الأهمية بحيث أن ذهابهم وفقدانهم موجباً لإرتكاب ذنب أو عصيان.

وربما يمكن أن يسمى ذلك تركاً للأولى فحسب، بمعنى أن إذن النبي لهم في تلك الظروف، وبما أظهره أولئك المنافقون من الأعداء بأيمانهم، وإن لم يكن أمراً سيئاً، إلا أن ترك الإذن كان أفضل منه، لتعرف هذه الجماعة بسرعة.

كما يُحتمل في تفسير الآية هو أن العتاب أو الخطاب المذكور أنفاً إنما هو على سبيل الكناية، ولم يكن في الأمر حتى «ترك الأولى» بل المراد بيان روح النفاق في المنافقين ببيان لطيف وكناية في المقام.

ويمكن أن يتضح هذا الموضوع بذكر مثال فلنفرض أن ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلا أن أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده فقد تكون

الكفرة.

والآيات - محل البحث - تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبينه بهذا التعبير «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور»

التنور: بتشديد النون، هو المكان الذي ينضج الخبز فيه بعد أن كان عجينا.

لكن ما مناسبة فوران الماء في التنور واقتراب الطوفان؟

يختلف المفسرون فكانت لهم أقوال كثيرة في ذلك..

قال بعضهم: كان العلامة بين نوح وربه لحلول الطوفان أن يفور التنور، ليلتفت

نوح وأصحابه إلى ذلك فيركبوا في السفينة مع وسائلهم وأسبابهم.

وقال جماعة آخرون: إن كلمة «التنور» استعملت هنا مجازاً وكنية عن غضب

الله، ويعني أن غضب الله اشتدت شعلته وفار، فهو إشارة إلى اقتراب حلول العذاب

المدمر، وهذا التعبير مطرد حيث يشبهون شدة الغضب بالفورة والإشتعال!

ولكن يبدو أن احتمال أن يكون التنور قد استعمل بمعناه الحقيقي المعروف

أقوى، والمراد بالتنور ليس تنوراً خاصاً، بل المقصود بيان هذه المسألة الدقيقة،

وهي أن حين فار التنور بالماء - وهو محل النار عادة - التفت نوح ﷺ وأصحابه

إلى أن الأوضاع بدأت تتبدل بسرعة وأنه حدثت المفاجأة، فأين «الماء من

النار»؟!

وبتعبير آخر: حين رأوا أن سطح الماء ارتفع من تحت الأرض وأخذ يفور من

داخل التنور الذي يُصنع في مكان يابس ومحفوظ، من الرطوبة علموا أن أمراً

مهماً قد حدث وأنه قد ظهر في التكوين أمر خطير، وكان ذلك علامة لنوح ﷺ

وأصحابه أن ينهضوا ويتهيأوا.

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهي فوران التنور بالماء في بيوتهم

ولكن غصوا أجفانهم وصموا آذانهم كعادتهم عند مثل العلائم الكبيرة حتى أنهم لم

يسمحوا لأنفسهم بالتفكير في هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.
في هذه الحالة بلغ الأمر الإلهي نوحاً «وقلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن».

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ «وما آمن معه إلا قليل».
هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان - اللذين ستأتي قصتهما في الآيات المقبلة - وقد قطعاً علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق في ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأن الشرط الأول للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة أخرى إلى أن ثمرة جهاد نوح ﷺ بعد هذه السنين الطوال والسعي الحثيث المتواصل في التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل!

بعض الروايات تقول أنه استجاب لنوح خلال هذه الفترة الطويلة ثمانون شخصاً فقط، وتشير بعض الروايات الأخرى إلى عدد أقل من ذلك، وهذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النبي العظيم نوح ﷺ من الصبر والإستقامة «في درجة قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهداية شخص واحد عشر سنوات تقريباً، هذا التعب الذي لا يبذله الناس حتى لأولادهم».

جمع نوح ﷺ ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أظف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا في السفينة «وقال اركبوا فيه بسم الله مجراها ومرساها»^(١).

لماذا؟! لكي يعلمهم أنه ينبغي أن تكونوا في جميع الحالات في ذكر الله تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ».
فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من

(١) المجرى والمرسى: اسماً زمان، ويعني الأول وقت التحرك، والثاني وقت التوقف.

الفرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبدت السماء بالغيوم كأنها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد ومضات البرق في السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جداً».

شرع المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر، وكما يصفه القرآن في سورة القمر «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتق الماء على أمرٍ قد قدر».

ومن جهة أخرى إرتفعت المياه الجوفية بصورة رهيبة بحيث تفجرت عيون الماء من كل مكان.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا وادٍ ولا تلة ولا نجد إلا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضماً .. أما الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضي في هذا البحر وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، فإن مصيرك إلى الفناء إذا لم تركب معنا.

لم يكن نوح هذا النبي العظيم أباً فحسب، بل كان مربياً لا يعرف التعب والنصب، ومتفائلاً بالأمل الكبير بحيث لم ييأس من ابنه القاسي القلب، فناداه عسى أن يستجيب له، ولكن - للأسف - كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرِّق عليه.

لذلك فإن هذا الولد اللجوج الاحمق، وظناً منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحاً و«قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء» ولكن نوحاً لم ييأس مرة أخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و«قال لا عاصم اليوم من أمر الله» ولا ينجو من هذا الفرق إلا من شمله لطف الله «إلا من رحم».

الجبل أمره سهل وهين، وكرة الأرض أمرها هين كذلك.. الشمس والمجموعة الشمسية بما فيها من عظمة مذهلة لا تعدل ذرة إزاء قدرة الله الأزلية.

أليس أعلى الجبال بالنسبة لكرة الأرض بمثابة نتوءات صغيرة على سطح برتقالة؟! أليست هذه الأرض التي ينبغي أن يتضاعف حجمها إلى مليون ومئتي ألف مرة حتى تبلغ حجم الشمس، وهذه الشمس التي تعدّ نجماً متوسطاً في السماء من بين ملايين الملايين من النجوم في متسع عالم الخلق، فأَيّ خيال ساذج وفكرٍ بليد يتوقع من الجبل أن يصنع شيئاً؟

وفي هذه الحالة التي كان ينادي نوح ابنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده «وحال بينهما الموج فكان من المغرقين».



١- هل كان طوفان نوح مستوعباً للعالم؟! يوم ربي

من خلال ظاهر الآيات يبدو لنا أنّ الطوفان لم يكن لمنطقة من الأرض دون أخرى، بل غطى كل سطح الأرض، لأنّ كلمة «الأرض» ذكرت بصورة مطلقة، كما في الآية (٢٦) من سورة نوح «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» كما في الآية (٤٤) المقبلة من سورة هود «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي» وهكذا ذكر كثير من المؤرخين - أيضاً - أنّ طوفان نوح كان عالمياً، ولذلك يرجع نسل جميع البشر اليوم إلى واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام وسام ويافث» الذين بقوا بعده مدة!

وفي التاريخ الطبيعي نعثر على فترة تدعى فترة الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفترة الزمنية قبل تولّد الحيوانات، فهي تنطبق على طوفان نوح.

وهذه النظرية موجودة أيضاً التاريخ الطبيعي للأرض، وهي أن محور الكرة الأرضية يتغير تدريجاً، بحيث يكون القطبان الشمالي والجنوبي مكان خط الإستواء، ويحلّ خط الإستواء محلّهما، وواضح أن الحرارة التي تكون في أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبية فترتفع مياه البحار حتى تستوعب كثيراً من اليابسة، ومع النفوذ في ثنايا الأرض وطياتها تحدث العيون المتفجرة، وكل ذلك يبعث على كثرة السحب والأمطار.

كما أن مسألة اختيار نوح عليه السلام من كل نوع من الحيوانات زوجين وحملها معه على السفينة يؤيد كون الطوفان عالمياً أيضاً، وإذا عرفنا أن نوحاً كان يسكن الكوفة - كما تقول الروايات - وأن طرف الطوفان وحافته - طبقاً للروايات الأخرى - كان في مكة وبيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضاً مؤيد «لعالمية الطوفان». ولكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان في منطقة معينة من الأرض، لأن إطلاق الأرض على المنطقة الواسعة من العالم تكرر في عدد من آيات القرآن، كما نقرأ في قصة بني إسرائيل «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها»^(١).

وحمل الحيوانات في السفينة ربّما كان لئلا ينقطع نسلها في ذلك القسم من الأرض، خصوصاً أن نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيباً «فتدبر»!

وهناك قرائن أخرى تقدم ذكرها يمكن أن يستفاد منها أن الطوفان لم يستوعب الكرة الأرضية كلها.

وهناك مسألة تسترعي الإنباه - أيضاً - وهي أن طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس لنا دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، وعادة فإن وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد.. ولكن على كل حال

فالهدف القرآني من بيان هذه القصة للعبرة وبيان المسائل التي تربى الآخرين، سواء كان الطوفان عالمياً أو غير عالمي.

٢- هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟!

يستفاد من الآيات المتقدمة أن نوحاً عليه السلام استمر يدعو ولده حتى بعد شروع الطوفان، وهذا دليل على أنه لو آمن ابنه «كنعان» لقبّل إيمانه.

ويرد هنا سؤال وهو أنه بالنظر إلى آيات القرآن الأخرى والتي مرّت «نماذج» منها، تنصّ على أن أبواب التوبة تغلق بعد نزول العذاب.. لأنّ المجرمين في هذه الحالة إذ يرون العذاب محققاً بهم فالغالبية منهم يتوبون عن اكراه واضطرار لرؤية العذاب بأعينهم، فعندئذ تكون توبتهم بلا محتوى وفاقد للاعتبار.

ولكن بالتدقيق في الآيات السابقة يمكن الجواب على هذا السؤال، هو أن شروع الطوفان وما جرى في بداية الأمر، لم يكن علامة واضحة للعذاب، بل كان يُتصور أنه مطر شديد لا مثيل له.. وعلى هذا فإن ابن نوح حين قال لأبيه «سأوي إلى جبل يعصمني من الماء» ظناً منه أن الطوفان والمطر كانا طبيعيين. ففي هذه الحالة لا يبعد أن تكون أبواب التوبة ما تزال مفتوحة،

ويمكن أن يرد سؤال آخر في شأن ابن نوح، وهو أنه لم نادى نوح ابنه دون سائر الناس في هذه اللحظة الحرجة؟!

ويمكن أن يكون الجواب أن نوحاً أدّى وظيفته في الدعوة العامة للآخرين وبضمنها دعوته لولده، إلا أنه كان يتحمل وظيفة أصعب بالنسبة لولده، وهي وظيفة «الأبوة» إلى جانب وظيفة «النبوة» فهذا السبب كان يؤكد على أداء وظيفته بالنسبة لولده إلى آخر لحظة.

والإحتمال الآخر وكما يقول المفسرون أن ابن نوح لم يكن في صف الكفار ولا في صف المؤمنين، بل كما يقول القرآن: «كان في معزل» فلاّنه لم يكن مع

المؤمنين فإنه كان يستحق العقاب، ولأنه لم يكن مع الكافرين فإنه كان يستحق أن يتوجه إليه التبليغ واللفظ والمحبة بصورة أكثر.. أضيف إلى ذلك أن ابتعاده عن الكفار وكونه في معزل، كان يقوي أمل نوح في أن يندم ولده على الابتعاد عنه. وهناك احتمال آخر، وهو أن ابن نوح لم يكن يخالف أباه بصراحة، بل كان منافقاً وكان يوافق أباه في الظاهر أحياناً، فلذلك طلب نوح من ربه له النجاة. وعلى كل حال فإن الآية السابقة لا تنافي مضامين الآيات الأخرى التي تشير إلى انسداد أبواب التوبة حال نزول العذاب.

٣- دروس تربوية من طوفان نوح:

إن هدف القرآن الأصلي من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسابيل تربوية، وفي هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جداً نشير إلى قسم منها:

أ- تطهير وجه الأرض:

صحيح أن الله رحيم ودود، ولكن لا ينبغي أن ننسى أنه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمريين الإلهيين في قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك في الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتي.

وهذا الأمر غير منحصر في قوم نوح ولا بزمان معين، إنما هو سنة الله في خلقه وعبادة في جميع العصور والأزمان حتى في عصرنا الحاضر، وأي إشكال في أن تكون كل من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

ب - لم كان العقاب أو الطوفان؟!

صحيح أن قوماً أو أمة كانوا فاسدين وينبغي زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق في الآيات المتقدمة نستفيد أن هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب الله دائماً وأبداً. «فتدبر جيداً»

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى في «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أن هلاك فرعون ونهايته كان في النيل.

وكان نمرود يعتمد على «جيشه» العظيم، لكننا نعلم أن جيشاً - لا يعتد به - من الحشرات هزمه وجنوده أجمعين.

وكان قوم نوح أهل زراعة «وأنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم في «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ..

ومن هنا يتضح جلياً أن حساب الله في غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة في عصرنا وفي الحرب العالمية الأولى والثانية كيف أيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغي أن نعجب أن هذه الصناعات المتقدمة التي اعتمدوا عليها في استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم .. أدت إلى زوالهم.

ج - اسم الله على كل حال وفي كل مكان

قرأنا في الآيات المتقدمة أن نوحاً عليه السلام يوصي أصحابه أن لا ينسوا ذكر اسم الله في بداية حركة السفينة وعند توقفها، فكل شيء يتقوم باسمه وبذكره، وينبغي أن نستمد العون من ذاته القدسيّة، كل حركة وكل توقف، حال الهدوء وحال الإعصار والطوفان، كل هذه الحالات ينبغي أن تبدأ باسمه، لأن كل عمل يبدأ دون ذكر اسمه فهو «أبتر ومقطوع»، وكما ورد عن نبي الإسلام ﷺ في الحديث الشريف

«كل أمر ذي بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أبتري»^(١) وليس ذكر الله من باب التشريف، بل هو هدف وغاية، فكل عمل ليس فيه هدف إلهي فهو أبتري، لأن الأهداف المادية تتلاشى وتنتهي إلا الأهداف الإلهية فهي غير قابلة للفناء، وحين تبلغ الأهداف المادية الذروة تنطفئ وتزول، إلا أن الأهداف الإلهية خالدة وباقية كذاته المقدسة.

د- المرتكزات الجوفاء:

من الطبيعي أن كل أحد يعتمد في التغلب على الصعاب ومواجهة المشاكل في حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم.. ولكن- كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ - لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر الله وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح عليه السلام لغروره وغفلته كان غارقاً في مثل هذا الوهم، وظن أن الجبل سيعصمه من طوفان غضب الله ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنه وأنهت حياته.

من هنا نقرأ في بعض الأدعية «إني هارب منك إليك»^(٢) أي: لو كان هناك ملجأ أمام طوفان غضبك يارب، فهذا الملجأ هو ذاتك المقدسة والعودة إليك لا إلى سواك.

(١) سفينة البحار ص ٦٦٣ الجزء الأول.

(٢) دعاء أبي حمزة الثمالي.

هـ - سفينة النجاة:

لا يمكن الخلاص من أي طوفان دون سفينة النجاة، وليس شرطاً أن تكون هذه السفينة من الخشب والحديد، بل ما أحسن أن تكون هذه السفينة ديناً يقوم السلوك ويهب الحياة الطيبة ويقاوم أمام أمواج طوفان الانحراف الفكري، ويوصل أتباعه إلى ساحل النجاة.

وعلى هذا الأساس وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ في مصادر الشيعة والسنة تعبر عن أهل بيته - وهم الأئمة الطاهرون وحملة الإسلام - بأنهم «سفينة النجاة».

يقول حنش بن المغيرة وأبوذرّ أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول: أنا أبوذر الغفاري، من لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا»^(١).

وفي بعض الروايات أضيف إليها هذا النص «ومن تخلف عنها غرق»^(٢) أو «من تخلف عنها هلك»^(٣).

هذا الحديث الشريف عن النبي ﷺ يبين بوضوح أنه حين يطفئ الطوفان الفكري والعقائدي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، فإن طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت ﷺ دون المذهب التي اصطنعتها السلطات السابقة والتي لا علاقة لها بأهل البيت ﷺ.



(١) عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١١.

(٢) المعجم الكبير بخط الحافظ الطبراني، صفحة ٣٠ مخطوط.

(٣) المصدر نفسه عن جماعة من أهل السنة كابن المغازلي والخوارزمي، الجزء التاسع من أحقاف الحق، ص ٢٨٠ لمزيد الإيضاح جديدة.

الآية

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ
وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

نهاية الحادث:

قرأنا في الآيات السابقة - إجمالاً - أن الأمواج المتلاطمة الصاخبة من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجاً، أما المجرمون الجهلة فظناً منهم أنه طوفان عادي فصعدوا إلى أعالي القمم والمرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضاً وخفي تحت الماء كل شيء، وأخذت تلوح للعيون أجساد الطغاة الموتى وما بقي من البيوت ووسائل المعاش في ثنايا الأمواج على سطح الماء.

وكان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد الله سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة في كل صوب، وفي روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذي الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب

حتى عاشر محرم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء في بعض الروايات أنها سارت على أرض مكة وحول الكعبة.

وأخيراً صدر الأمر الإلهي بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية - محل البحث - تبين هذا الأمر وجزئياته ونتيجته في عبارات وجيزة جداً، وفي الوقت ذاته بليغة وأخاذة، وقد جاءت الآية في جمل ست:

١ - «وقيل يا أرض ابلعي ماءك» صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

٢ - «ويا سماء اقلعي» وصدر الأمر للسماء أن لا تمطري.

٣ - «وغيض الماء» ونزل الماء في جوف الأرض.

٤ - «وقضي الأمر» انتهى حكم الله.

٥ - «واستوت على الجودي» واستقرت السفينة على طرف جبل الجودي.

٦ - «وقيل بعداً للقوم الظالمين» عندئذٍ لعن المجرمون بالدعاء عليهم أن

يبتعدوا من رحمة الله.

كم هي رائعة هذه التعابير التي وردت في الآية المتقدمة، وهي في الوقت ذاته وجيزة وتفور بالحياة والجمال الأخاذ بحيث قال فيها طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعدُّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً في غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أننا نقرأ في روايات التاريخ الإسلامي أن جماعة من كفار قريش نهضوا لمواجهة القرآن وليأتوا بمثل آياته، فهاهم يريدون الطعام والشراب لهم لفترة أربعين يوماً، مثل لب الحنطة الخالص والخمر المعتق ولحم الغنم - لينسجوا براحة البال على منوال آيات القرآن شبيهاً لها، ولكنهم حين بلغوا هذه الآية - محل البعث - هزتهم بحيث نظر بعضهم إلى بعض وقال كل للآخر: هذا كلام لا يشبه كلام آخر، وهو أساساً لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك وانصرفوا

عما اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين^(١).

أين يقع الجودي؟

ذهب كثير من المفسرين أن الجودي الذي استقرت عليه السفينة - كما مر ذكره في الآية - جبل معروف قرب الموصل^(٢) وقال آخرون: هو جبل في حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد»

وفي كتاب الراغب الأصفهاني (المفردات) أنه جبل بين الموصل والجزيرة، وهي (جزيرة ابن عمر في شمال الموصل).

ولا يبعد أن تكون جميعها بمعنى واحد، «فالموصل» و«الجزيرة» و«آمد» جميعها في الجزء الشمالي من العراق وقرب الشام.

وقال آخرون: يحتمل أن يكون المقصود من الجودي كل جبل صلب أو أرض صلبة وقوية، ومعنى الآية حسب هذا التفسير أن السفينة استقرت على أرض صلبة غير رخوة لينزل ركبها على الأرض، ولكن المشهور والمعروف هو المعنى الأول. وفي كتاب «أعلام القرآن» تحقيق وتبويب حول جبل الجودي نوره بما يلي:

«الجودي» اسم جبل استقرت سفينة نوح واستوت على قمته، وقد ورد اسمه في الآية (٤٤) في سورة هود وهو قريب من المضمون الوارد في التوراة مع ما يتعلق به من أمور أخرى، وهناك ثلاثة أقوال بالنسبة إلى محل جبل الجودي:

١ - بناءً على قول «الأصفهاني» فإن جبل الجودي في الجزيرة العربية، وهو واحد من جبلين واقعين في منطقة نفوذ قبيلة (طيء).

٢ - إن الجودي هو سلسلة جبال «كاردين» الواقعة شمال شرقي جزيرة (ابن عمر) في شرق دجلة قرب الموصل؟ ويسمونها الأكراد (كاردو) بلهجتهم، ويسمونها

(١) راجع مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥، وروح المعاني، ج ١٢، صفحة ٥٧.

(٢) راجع مجمع البيان، وروح المعاني، والقرطبي، ذيل الآية محل البحث.

اليونانيون (جوردي) ويسمّيها العرب «الجودي».

في «الترگوم» وهي الترجمة الكلدانية لـ «التوراة» وكذلك الترجمة السريانية لـ «التوراة»: إنّ المكان الذي استقرت عليه سفينة نوح هو قلعة جبل الأكراد، أي «كاردين».

والجغرافيون العرب يطبقون الجودي المذكور في القرآن على هذه المنطقة - المشار إليها آنفاً - ويقولون إنّ قطع السفينة كان موجودة على قمة هذا الجبل حتى زمان بني العباس وكان المشركون يزورونها..

وفي القصص البابلية قصّة شبيهة بطوفان نوح عليه السلام (ملحمة گيلگامش) ويمكن - إضافة إلى ذلك - احتمال طغيان دجلة في تلك الفترة، وسكنة تلك المنطقة هم المبتلون بالطوفان.

وفي جبل الجودي كتيبة آشورية موسومة بكتيبة «ميسر» وقد لوحظ في هذه الكتيبة اسم «آرارتو».

٣ - وفي الترجمة الحالية لـ «التوراة»: إنّ محل استقرار سفينة نوح في جبال «آرارات» وهو جبل «ماسيس» الواقع في «أرمنستان» وقد ضبط صاحب قاموس الكتاب المقدّس معناه الأولي، فكان المعنى «ملعون» وقال: بناءً على ما جاء في الروايات فإنّ سفينة نوح استقرّت على قمة هذا الجبل، ويسمّيّه العرب بـ «الجودي» ويسمّيّه الإيرانيون بـ «جبل نوح» ويسميه الأتراك بـ «کرداغ» بمعنى الجبل المنحدر، وهو واقع قرب «أرس».

وحتى القرن الخامس لم يعرف الأرمنية جبلاً في أرمنستان باسم جبل «الجودي» ولكن منذ ذلك الوقت تسرب هذا المفهوم إلى علماء الأرمن وقد يكون السبب هو اشتباه المترجمين للتوراة الذين ترجموا جبل «الأكراد» إلى «آرارات»..

ولعل ممّا سوّغ هذا تصوّر أنّ الآشوريين أطلقوا على الجبال الواقعة شمال

بحيرة «وان» وجنوبها اسم «آارات» أو «آراتو».

يقال أن النبي نوحاً بنى مسجداً على قمة جبل الجودي بعد ما غاض الطوفان، ويقول الأرامنة: إن في سفح جبل الجادي «الجودي» قرية تدعى ثمانين أو ثمان، وهي أول محل نزل فيه أصحاب نوح عليه السلام ^(١).



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

الآيات

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ
إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ
أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾

التفسير

حادثة ابن نوح المؤلمة:

قرأنا في الآيات المتقدمة أن ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق في أمواج الطوفان.

وهذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوة وتذكر وعد الله في نجاة أهله فالتفت إلى ساحة الله منادياً «فقال ربِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وأنت أحكم الحاكمين».

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (٤٠) من هذه السورة حيث يقول سبحانه: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾. فكان أن تصوّر نوح أن قوله تعالى: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ خاص بزوجه المشركة التي لم تؤمن به دون ابنه كنعان، ولذلك خاطب نوح ربّ العزّة بهذا الكلام.

ولكنّه سمع الجواب مباشرة.. جواب يهزّ هزاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة.. حقيقة أنّ الرّباط الدينيّ أسمى من رباط النسب والقربة.. «قال يا نوح إنه ليس من أهلك أنّه عملٌ غير صالح».

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القربة بعد أن قطع رباط الدين. «فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصور نجاة ولده ممّا وعدّ الله به في نجاة أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً و«قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين».

* * *

بحوث

١- لم كان ابن نوح «عملاً غير صالح»؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ في الآية إيجاز حذف، وأصل الآية هكذا «إنّه ذو عملٍ غير صالح».

ولكن مع ملاحظة أنّ الإنسان قد يذوب في عمله إلى درجة أنّه يصير بنفسه العمل ذاته، وفي اللغات المختلفة يأتي مثل هذا التعبير على نحو المبالغة كأن يقال: إنّ فلاناً هو كل العدل والسخاء، أو إنّ فلاناً هو السرقة والفساد فكأنّه غاص في

العمل حتى صار هو العمل بذاته.

فابن نوح كان كذلك، فقد جالس رفقاء السوء وغاص في أعمالهم السيئة وأفكارهم المنحرفة، بحيث كأن وجوده تبدل إلى عمل غير صالح!.. فعلى هذا.. وإن كان التعبير المقدم موجزاً ومختصراً جداً، إلا أنه يعبر عن حقيقة مهمة في ابن نوح!.

أي لو كان هذا الظلم والانحراف والفساد في وجود ابن نوح سطحياً لكانت الشفاعة في حقه ممكنة، ولكنه أصبح غارقاً في الفساد والانحراف، فليس للشفاعة هنا محل، فدع الكلام فيه يانوح!..

وما يراه بعض المفسرين من أن كنعان لم يكن ابن نوح حقيقةً، أو أنه كان ابناً غير شرعي، أو أنه ابن شرعي من زوجته عن رجل آخر، بعيد عن الصواب لأن قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ في الواقع علة لقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنما نقول لك إنه ليس من أهلك فلأنه انفصل عنك بعمله وإن كان الرباط النسبي لا يزال قائماً..

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

٢- دائرة الوعد الإلهي

مع ملاحظة ما ورد في الآيات المتقدمة من خطاب نوح لربه وما أجابه الله به، ينقدح هذا السؤال وهو: كيف لم يلتفت نوح إلى أن ابنه كنعان كان خارج دائرة الوعد الإلهي؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال - كما أشرنا آنفاً - أن هذا الابن لم تكن له طريقة واحدة معروفة، فتارة تراه مع المؤمنين وأخرى مع الكفار، مما يوهم أنه مؤمن. بالإضافة إلى الإحساس بالمسؤولية الكبرى التي كان نوح يجدها في نفسه بالنسبة إلى ولده، كذلك المحبة والعلاقة الطبيعية التي يجدها كل أب بالنسبة لابنه، والأنبياء غير مستثنين من هذا القانون، كل ذلك كان سبباً في أن يطلب نوح من

ربه هذا الطلب..

ولكن بمجرد أن اطلع على واقع الأمر، أسف على طلبه فوراً واعتذر إلى الله راجياً عفوه - وإن لم يكن صدر منه ذنب - لأن موقع النبي يقتضي منه أن يراقب كلامه وتصرفاته، فكان الأولى عليه الترك، ومن هنا فقد سأل الله العفو والمغفرة.. ومن هنا يتضح الجواب على سؤال : هل يذنب الأنبياء حتى يطلبوا العفو والمغفرة ؟ ..

٣- هناك حيث تنقطع العلائق

تعكس الآيات الآتية درساً من أنجع الدروس الإنسانية والتربوية ضمن بيان قصة نوح.. درساً لا مفهوم له في المذاهب المادية لكنه أصل أساس في المذهب الإلهي والمعنوي.

فالعلائق المادية «النسب، القرابة، الصداقة، المرافقة» تخضع دائماً في المذاهب السماوية إلى العلائق المعنوية.

وفي المذاهب السماوية لا مفهوم للعلاقة النسبية والقرابة مقابل الرابطة المذهبية.

هناك حيث تتحقق العلاقة الدينية، كسلمان الفارسي الذي لا هو من أهل بيت النبي ولا من قريش ولا من أهل مكة، بل لم يكن أساساً من العرب، ولكنه طبقاً لما ورد في الحديث الشريف المعروف «سلمان منا أهل البيت» كان يعدّ من أسرة النبي ﷺ.

إلا أن الابن الواقعي والمباشر للنبي - كابن نوح - يطرد على أثر قطع علاقته الدينية، ويقال في شأنه لأبيه نوح : «إنه ليس من أهلك».

قد تكون هذه المسألة المهمة عسيرة الفهم لمن يعيش في دائرة التفكير المادي لكنها حقيقة من صميم الأديان السماوية جميعاً.

وعلى هذا الأساس نجد أحاديث أهل البيت عليهم السلام تتحدث عن بعض الشيعة الذين يحملون اسم التشيع إلا أنه لا يوجد فيهم علائم من تعليمات أهل البيت عليهم السلام بنفس الطريقة التي تقدمت في الآيات الآتية في القرآن الكريم حيث نقل عن علي بن موسى عليه السلام أنه سأل بعض أصحابه يوماً: كيف يفسر الناس هذه الآية «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» .. فأجابه أحد الحاضرين: إنهم يعتقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقي لنوح، فقال الإمام: «كلاً لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع الله فليس منا»^(١).

٤ - المسلمون المطرودون

ومن المناسب أن نستلهم من الآية فنشير إلى قسم من الأحاديث الإسلامية التي ترى طوائف كثيرة من المسلمين، أو أتباع أهل البيت عليهم السلام في الظاهر مطرودين وخارجين عن صف المؤمنين والشيعة:

- ١ - فقد ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «من غش مسلماً فليس منا»^(٢).
- ٢ - كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس بولي لي من أكل مال مؤمن حرام»^(٣).

- ٣ - ويقول النبي صلى الله عليه وآله: «ألا ومن أكرمه الناس اتقاء شره فليس مني».
- ٤ - وروي عن الإمام علي أنه قال: «ليس من شيعتنا من يظلم الناس».
- ٥ - وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «ليس منا من لم يحاسب نفسه كل يوم»^(٤).
- ٦ - ويقول النبي صلى الله عليه وآله: «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس

(١) تفسير الصافي ذيل الآية المتقدمة.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣١٨.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٥٣.

(٤) بحار الأنوار، الطبعة القديمة ج ١٥ قسم الأخلاق.

بمسلم»^(١).

٧ - وقال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه وكان يدعى «جابرًا»: «واعلم يا جابر بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء، لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح، لم يسرك ذلك، ولكن أعرض نفسك على كتاب الله»^(٢).

هذه الأحاديث تضع علامة «البطلان» على تصورات من يقنع بالإسم فحسب ولكنهم لا يعيرون أهمية للعمل بالتكليف، أو للروابط الإيمانية، وتثبت بوضوح أنّ الأصل في مذهب القادة الزبانيين والأساس هو الإيمان بالعقيدة والعمل بمنهجهم، وينبغي أن يقاس كل شخص بهذا المقياس.



(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٤.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٩١.

الآيتان

قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ
مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ
أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ
قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

مركز تحقيق وتفسير علوم إسلامي

هبوط نوح بسلام:

هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التي تتحدث عما جاء في نوح وقصته المليئة
بالدروس والعبر في سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح ﷺ من سفينته
وعودة الحياة والعيش الطبيعي على الأرض.
يقول القرآن في الآية الأولى من هاتين الآيتين: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾.

لا شك أن الطوفان كان قد دمر كل آثار الحياة.. فالأراضي العامرة والمرتفعات
الخضر والغابات النضرة كلها أبيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح
وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة

إزاء البركات الإلهية والسلامة وأن كل ذلك سيكون مهياً وموقراً لهم فلا ينبغي الحزن على شيء ..

مضافاً إلى ذلك فقد يأتي الحزن والخوف من شيء آخر وهو الخوف على السلامة والصحة بسبب المستنقعات والمياه الآسنة الباقية من آثار الطوفان التي تهدد حياتهم بالخطر ، فالله سبحانه يطمئن نوحاً وأصحابه أيضاً أنه لا خطر يهددهم ، وأن الذي أرسل الطوفان لهلاك الطغاة قادر على أن يوفر محيطاً سالماً مليئاً بالخيرات والبركات للمؤمنين كذلك .

هذه الجملة القصيرة تشعرنا وتفهمنا أن القرآن يهتم بالمسائل الدقيقة للغاية ، ويعكسها في عبارات مضغوطة شائقة وأخاذة ! .

كلمة «أمم» هي جمع «أمة» وهذا التعبير يدل على أن مع نوح طوائف من عباد الله وخلقهم ، كما يدل هذا التعبير على أن الأفراد الذين هم مع نوح كل منهم سيكون سبباً لوجود قبيلة وأمة كبيرة ، أو أنه فعلاً كان مع نوح أفراد من قبائل وأمم متعددة فيشكل مجموعهم أمماً أيضاً ..

ويرد هذا الاحتمال أيضاً ، وهو أن الأمم التي كانت مع نوح تشمل مجموعة الحيوانات المتعددة ، لأن القرآن أطلق لفظ الأمة عليها أيضاً في مكان آخر من آياته ، فنحن نقرأ في سورة الأنعام الآية (٣٨) «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» .

فيتضح بهذا أن نوحاً وأصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات الله وليطمئنوا بالحياة الهائلة ، كذلك الحال بالنسبة إلى الحيوانات التي كانت معهم في السفينة وهبطت إلى الأرض ، فإن لطف الله شملها جميعاً كذلك .

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنه ستعقب الأمم التي معك أمم من نسلها ، ولكن هذه الأمم ستغتر وتغفل عن نعم الله فتتال جزاءها من الله «وأمم ستمتعهم ثم يمسهن مبناً عذاب أليم» .

فعلى هذا ليس انتخاب الأصلح من الناس أو إصلاح الناس عن طريق الطوفان هو آخر الانتخاب وآخر الإصلاح، بل ستبلغ مرحلة جديدة من بني آدم أيضاً يصلون بها الذروة من الرشد والتكامل، ولكن الناس قد يسيئون الاستفادة من حرية الإرادة ويستخدمونها في طريق الشر والفساد، فينالون جزاءهم في هذه الدنيا كما ينالون العذاب في الآخرة.

الطريف في الآية أنها تقول «ستمتعهم» ثم تتحدث عن العذاب مباشرة. وفي ذلك إشارة إلى أن الاستمتاع ينبغي أن يكون مدعاة للشكر والثناء على نعم الله وطاعته، ولكن غالباً ما يزيد المتنعمين طغياناً وكفراً ويقطعون العلاقة بينهم وبين الله.

وينقل العلامة الطبرسي في مجمع البيان في ذيل الآية أن بعض المفسرين يقول في قوله: «نمتعهم» الخ: هلك المستمتعون في الدنيا لأن الجهل يغلب عليهم والغفلة فلا يتفكرون إلا في الدنيا وعمارتها وملذاتها.

هذا الواقع يرى جيداً في الدول المتنعة والتموِّلة في هذا العالم، حيث يغوص أهلها بالفساد فلا يفكرون في المستضعفين - فحسب - بل نراهم يوماً بعد آخر يحاولون الكيد بهم وإراقة دمائهم أكثر فأكثر، لذلك كثيراً ما يتفق أن ينزل الله عليهم الحروب والحوادث الأليمة التي تسلب النعم مؤقتاً لعلهم يفيقون من غفلتهم.

وفي آخر آية تختتم بها قصّة نوح - في هذه السورة - إشارة كلية عامّة إلى ما حدث في عهد نوح فتقول: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا».

فالخطاب هنا للنبي محمد ﷺ يؤكد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح ﷺ عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر «فاصبر إن العاقبة للمتقين».

الآية الأخيرة تشير إلى عدة مسائل:

١ - إن بيان قصص الأنبياء ﷺ - بالصورة الواقعية والخيالية من أي نوع من أنواع التحريف الخرافة - ممكن عن طريق الوحي السماوي فحسب، وإلا فإن كتب تاريخ الماضين مليئة بالأساطير والقصص الخيالية التي بلغت درجة لا يمكن معها معرفة الحق من الباطل، وكلما عدنا إلى الوراء أكثر وجدنا الخلط والتزييف أكثر.

فعلى هذا، يعتبر بيان حال الانبياء الماضين والاقوام السالفة بصورة سليمة وخالية من الخرافات والخزعبلات دليلاً على حقانية القرآن والاسلام والنبي الاكرم ﷺ.

٢ - استفاد من هذه الآية - خلافاً لما يتصوره البعض - أن الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم الله وبالمقدار الذي كان يريد الله لهم، لا أنهم يعلمون الغيب من أنفسهم، وإذا وجدنا في بعض الآيات ما ينفي العلم الغيبي عنهم، فهو إشارة إلى أن علمهم ليس ذاتياً، بل هو من الله.

٣ - وهذه الآية توضح حقيقة أخرى، وهي أن بيان قصص الأنبياء والاقوام الماضين في القرآن ليس درساً للمسلمين فحسب، بل هو إضافة إلى ذلك تسليية لخاطر النبي وطمأنة لقلبه، لأنه بشر أيضاً، وينبغي أن يتلقى الدروس من الأديان الالهية و يتهيأ لمواجهة الطاغوت في عصره، وأن لا يكثرث بهموم المشاكل في طريقه.

أي كما واجه نوح المشاكل بصبر واستقامة لسنين طوال ليهدي قومه إلى الإيمان، فعليك يا نبي الإسلام أن لا تدع الصبر والإستقامة على كل حال!
والآن نودع قصة نوح بكل ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبي عظيم آخر وهو هود الذي سُميت هذه السورة باسمه.

الآيات

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنتمِ إِلَّا مَفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

مركز تحقيق وتبويب علوم إسلامي

التفسير

محطّم الأصنام الشّجاع:

كما أشرنا آنفاً، فإنّ قصص خمسة أنبياء عظام وما واجههوه من شدائد وصعاب في دعواتهم والنتائج المترتبة عليها مبين في هذه السورة. وفي الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأما الآن فالحديث عن هود عليه السلام.

جميع هؤلاء الأنبياء جمعهم هدف واحد ومنطق واحد، وجميعهم نهضوا لإتقاذ البشرية من كل أنواع الأسر، ولدعوتهم إلى التوحيد بجميع أبعادها.

وكان شعارهم جميعاً الإيمان والإخلاص والجد والمثابرة والاستقامة في سبيل الله، وكان رد الفعل من أقوامهم الخشونة والارهاب والضغط..

يقول سبحانه في الآية الأولى من هذه القصة.. «وإلى عاد أخاهم هوداً» ونلاحظ في الآية أنها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جارٍ في لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد..

فمثلاً يقولون في الأسدي «أخو أسد» وفي الرجل من قبيلة مذحج «أخو مذحج».

أو أن هذا التعبير يشير إلى أن معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبياً، وهذه الحالة هي صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطق أنهم إخوة لهم.. معاملة خالية من أية شائبة واي امتياز أو استعلاء.

كان أول دعوة هود - كما هو الحال في دعوة الأنبياء جميعاً - توحيد الله ونفي الشرك عنه «قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون». فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أي عمل، وأي افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التي لا قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلاً لقومه: لا تتصوروا أن دعوتي لكم من أجل المادة، فأنا لا أريد منكم أي أجر «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً» فأجري وحده على من فطرني ووهبني الروح وأنا مدين له بكل شيء، فهو الخالق والرازق «إن أجري إلا على الله».

وأساساً فإنني في كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغي طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شيء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه «أفلا تعقلون».

ثم شرع هود ببيان الأجر المادي للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من

جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق في قومه الظالين فبيّن أن هذا الأجر المادي مشروط بالإيمان فيقول: «ويا قوم استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه» فإذا فعلتم ذلك فإنّه «يرسل السماء عليكم مدراراً»^(١) لئلا تصاب مزارعكم بقلّة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ الله بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرفعكم «ويزدكم قوّة إلى قوتكم». فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، بل إنّ قواكم الجسميّة ستزداد بالاستفادة من القوّة المعنويّة.. وبهذا الدعم المهم ستقدرون على عمارة المجتمع وبناء حضارة كبيرة وأمة مقتدرة تتمتع باقتصاد قوي وشعب حر مستقل، فعلى هذا إيتاكم والابتعاد عن طريق الحق «ولا تتولوا مجرمين».



١ - التوحيد أساس دعوة الأنبياء:

يبين تاريخ الانبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفي الشرك ونفي عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإنّ أي إصلاح في المجتمعات الإنسانيّة لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها أمور تسترشد من منبع واحد وهو توحيد المعبود. وأمّا الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانيّة.. وما إلى ذلك.. وارتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خافٍ على

(١) «المدرار» كما وضعنا سابقاً مشتق من «درّ» وهو انصباب حليب الأثداء، ثمّ استعمل في انصباب المطر. والطريق في الآية أنّها لا تعبر بـ «ينزل المطر من السماء» بل قالت: «يرسل السماء عليكم مدراراً» بمعنى أنّ المطر يهطل إلى درجة غزيرة حتى كأنّ السماء تهطل، وملاحظة أنّ مدراراً صيغة مبالغة أيضاً فيستفاد غاية التوكيد من هذه الجملة.

أحد!

الشخص الذي يدور حول نفسه - أو يجزّ النّار إلى قرصه - يرى نفسه فحسب، ولهذا فهو مشرك، لأنّ التوحيد يذيب «الانا» والذات الفردية في محيط اجتماعي واسع عريض، والموحد لا يرى شيئاً سوى واحد كبير، أي أن جميع المجتمع الإنساني عباد الله!

والاشخاص الذين يطلبون الاستعلاء مشركون من نوع آخر، فهم في صراع مع أبناء جلدتهم ويرون منافعهم منفصلة عن منافع الآخرين، فهذا التجزيء أو «هذه الإزدواجية» ليس إلّا شركاً في أوجه مختلفة.

من هنا بدأ الأنبياء في سبيل اصلاح المجتمع بالدعوة الى توحيد المعبود «الله»، ثمّ توحيد الكلمة، وتوحيد العمل، وتوحيد المجتمع.

٢- قادة الحق لا يطلبون أجراً من أتباعهم.

إنّ الزعيم الواقعي يمكنه أن يكون في مأمن من أي اتهام ويواصل طريقه في غاية الحرية في صورة ما لو لم تكن له حاجة مادية، فبذلك يستطيع أن يصحح كل انحراف في أتباعه، وإلا فإنّ الحاجة المادية بالنسبة لهذا المصلح ستكون غلاً تصفّد به يده ورجلاه وقفلاً على لسانه وفكره.

ومن هذا الطريق .. طريق الحاجة المادية يدخل المنحرفون لممارسة ضغوطهم عليه عن طريق قطع المساعدات المادية أو عن طريق الإغراء بزيادة المساعدات، ومهما يكن الزعيم والقائد نقياً صافياً ومخلصاً فهو إنسان - أيضاً - ومن الممكن أن تزل قدماء ولهذا السبب نقرأ في الآيات الآتية - وآيات أخرى من القرآن - أنّ الأنبياء يعلنون بصراحة في بداية دعوتهم أنّه ليست لهم حاجة مادية ولا ينتظرون من أتباعهم الأجر.

وهذا دستور لجميع القادة ولا سيما القادة الروحانيين ورجال الدين، غاية ما

في الأمر لما كان هؤلاء المصلحون ورجال الدين يقضون أوقاتهم في خدمة الإسلام والمسلمين، فينبغي أن تؤمن حاجاتهم المادية بطريق صحيح، وأن يقوم صندوق الإعانة وبيت مال المسلمين بتكفل هذه الجماعة، فإنّ واحداً من أغراض إنشاء بيت المال في الإسلام هو هذا الغرض، أي ليصرف على رجال الدين المنشغلين بالإصلاح والتبليغ.

٣- الذنب وهلاك المجتمعات

كما نرى أيضاً - في الآيات المتقدمة - أنّ القرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية والمادية، فيعدّ الاستغفار من الذنب والتوبة إلى الله أساس العمران والخصب والخضرة والنضرة وزيادة في القوة والاقتدار.

هذه الحقيقة نلمسها في كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد في سورة نوح على لسان هذا النبي العظيم لقومه، حيث تقول الآيات ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (١).

الطريف هنا أننا نقرأ في الروايات الإسلامية أنّ الربيع بن صبيح: قال: كنت عند الحسن بن علي عليه السلام فجاءه رجل وشكا له من الجذب والقحط، فقال له الحسن عليه السلام: استغفر الله، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر الله، فجاءه ثالث وقال له: ادع لي أن يرزقني الله ولداً، فقال الحسن عليه السلام: استغفر الله، يقول الربيع بن صبيح: فتعجبت وقلت له: ما من أحدٍ يأتيك ويشكو إليك أمره ويطلب النعمة إلا أمرته بالاستغفار والتوبة إلى الله..

فأجابه: «إنّ ما قلته لم يكن من نفسي، وإنما استغفرت ذلك من كلام الله الذي يحكيه

عن لسان نبيه نوح»، ثم تلا الآيات المتقدمة.^(١)

بعض الأشخاص أعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يقيمون ارتباطاً معنوياً وعلاقة «غير معروفة» بين هذه الأمور ويُريحون أنفسهم من كل تحليل. ولكن إذا دققنا النظر أكثر نجد بين هذه الأمور علائق متقاربة تشد المسائل المادية بالمعنوية في المجتمع كالخيوط الذي يربط بين قطع القماش مثلاً. فأَيُّ مجتمع يكون ملوثاً بالذنوب والخيانة والنفاق والسرقة والظلم والكسل وأمثال ذلك، ثم يكون هذا المجتمع عامراً بكثير البركات؟!

وأي مجتمع ينزع عنه روح التعاون ويلجأ إلى الحرب والنزاع وسفك الدماء، ثم تكون أرضه خصبة خضراء، ويكون مرفهاً في وضعه الاقتصادي أيضاً؟! وأي مجتمع يفرق أفرادَه في دوامة الهوى والميول النفسية، ثم في الوقت ذاته يكون قوياً راسخ القدم ويثبت أمام عدوّه؟!

ينبغي القول بصراحة أنه ما من مسألة أخلاقية إلا ولها أثر مفيد ونافع في حياة الناس المادية، ولا يوجد اعتقاد وإيمان صحيح إلا وكان لهما نصيب في بناء مجتمع عامر حرّ مستقل وقوي..

الأفراد الذين يفصلون المسائل الأخلاقية والإيمان بالدين والتوحيد عن المسائل المادية لا يعرفون المسائل المعنوية حقاً ولا المسائل المادية.

وإذا كان الدين عبارة عن سلسلة من التشريعات والآداب الظاهرية والخالية من المحتوى بين الناس، فمن البديهي أن لا يكون له تأثير في النظام المادي.

ولكن حين تكون الإعتقادات المعنوية والروحانية نافذة في روح الإنسان إلى درجة تظهر آثارها على يده ورجله ولسانه وأذنه وعينه وجميع ذرات وجوده، فإن الآثار البناءة لهذه الإعتقادات في المجتمع لا تخفى على أحد.

وقد لا نستطيع إدراك علاقة الإستغفار بنزول البركات المادية جيداً، ولكن

دون شك فإنّ قسماً كبيراً منها يمكن أن ندركه!

لقد شاهدنا في مواجهات المسلمين الثائرين مع الكفار في هذا العصر والزمن - جيداً - أنّ الاعتقادات الإسلامية والقوى الأخلاقية والمعنوية استطاعت أن تنتصر على أحدث الأسلحة المعاصرة وأقوى الجيوش والقدرات الإستعمارية، وإنّ دَلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على أثر العقائد الدينية الإيجابية والمعنوية إلى أقصى حدّ في المسائل الإجتماعيّة والسياسيّة.

٤- ما المراد من قوله تعالى: «ويزدكم قوةً إلى قوتكم».

إنّ الظاهر من هذه الآية أنّ الله سبحانه يزيّدكم من خلال الإستغفار قوةً بالإضافة إلى قوتكم، يشير بعض المفسّرين إليه أنّ المراد من هذه القوة هي القوة الإنسانيّة كما مرّ ذلك في سورة نوح: «ويعدّدكم بأموال وبنين» ومنهم من قال: إنّها القوى المادية تضاف إلى القوة المعنويّة. ولكنّ تعبير الآية مطلق وهو يشمل أي زيادة في القوى المادية والمعنويّة، ولا يعارض أيّاً من التفاسير، بل يحتضنها جميعاً..

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

* * *

الآيات

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ
 قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَزَّاكَ بَعْضُ
 آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنَّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٤﴾
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
 بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
 أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
 تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٦﴾

التفسير

قوة المنطق:

والآن لننظر ماذا كان رد فعل القوم المعاندين والمغرورين - قوم عاد - مقابل نصائح أخيههم هود وتوجيهاته إليهم: «قالوا يا هود ما جئتنا ببينة» أي لم تأتينا بدليل مقنع لنا «وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك» الذي تدعونا به إلى عبادة الله

وترك الأوثان ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾.

وأضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقية، أنك يا هود مجنون وإن نقول إلا اعتراضك بعض آلهتنا بسوء﴾ ولا شك أن هوداً - كأبي نبي من الأنبياء - أدى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنهم لغرورهم - مثل سائر الأقوام - أنكروا معاجره وعدوها سحراً وعبارة عن سلسلة من المصادفات والحوادث الاتفاقية التي لا يمكن أن تكون دليلاً على المطلوب. وأساساً، فإن نفي عبادة الأوثان لا يحتاج إلى دليل، ومن يكن له أقل شعور وعقل - ويترك المخاصمة - يدرك هذا الأمر جيداً، ولو فرضنا أن ذلك يحتاج إلى دليل، فهل يحتاج إلى معجزة بعد الدلائل العقلية والمنطقية..؟!!

وبتعبير آخر فإن ما جاء في دعوة هود - في الآيات المتقدمة - هو الدعوة إلى الله الواحد الأحد، والتوبة إليه والإستغفار من الذنوب، ونفي أي نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان، كل هذه المسائل يمكن اثباتها بالدليل العقلي. فعلى هذا، إن كان المقصود من قولهم: ﴿ما جئنا ببيّة﴾ هو نفي الدليل العقلي، فكلامهم هذا غير صحيح قطعاً. وإذا كان المقصود هو نفي المعجزة، فإن هذا الإدعاء لا يحتاج إلى معجزة. وعلى كل حال فإن قولهم: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ دليل على لجاجتهم، لأن الإنسان العاقل والباحث عن الحقيقة يتقبل الكلام الحق من أي كان.

وخصوصاً هذه الجملة ﴿إن نقول﴾ إلا اعتراضك بعض آلهتنا بسوء﴾ فإنهم يتهمونه بالجنون على أثر غضب آلهتهم! فإن هذا الكلام منهم دليل على خرافة منطقهم، وخرافة عبادة الأصنام!

فالحجارة والأخشاب التي ليس فيها روح ولا شعور والتي تحتاج إلى حماية من الإنسان نفسه، كيف تستطيع أن تسلب العقل والشعور من الإنسان العاقل؟! أضف إلى ذلك، ما دليلهم على جنون هود إلا أنه كسر طوق «السنة المتبعة

عندهم» وكان معارضاً للسنن والآداب الخرافية في محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغي أن نعدّ جميع المصلحين والناشرين على الأساليب الخاطئة مجانين. وليس هذا جديداً، فالتاريخ السالف والمعاصر مليء بنسبة الجنون إلى الأشخاص النافرين على الخرافات والعادات السيئة والمواجهين للإستعمار، والنافذين أثواب الأسر.

على كل حال، فإنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالّين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوة أيضاً.. يقول القرآن في جواب هود لهم «قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون».

يشير بذلك إلى أنّ الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكي وموتي لمحاربتي لها علناً فعلاً تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بي؟ ثمّ يضيف أنّه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شيء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شيء، فإذا كنتم قادرين «فكيدوني جميعاً ثمّ لا تُنظرون». فأنا لا تردعني كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكرث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمي ولديكم مختلف القدرات، إلا أنني واثق بقدرة فوق كل القدرات، و«إني توكلت على الله ربّي وربكم».

وهذا دليل على أنني لا أقول إلاّ الحق والصدق، وأن قلبي مرتبط بعالم آخر، فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة في مجتمع قوي ومتعصب، لكنّه في الوقت ذاته لا يشعر في نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثمّ يضيف: لستم وحدكم في قبضة الله، فإنّه «ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها»، فما لم يأذن به الله، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً.

ولكن اعلّموا أيضاً أنّ ربّي القدير ليس كالأشخاص المقتدرين الذين يستخدمون قدرتهم للهوي واللعب والأنانية وفي غير طريق الحق، بل هو الله

الذي لا يفعل إلا الحكمة والعدل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

* * *

ملاحظتان

الأولى: إِنَّ «الناصية» في اللغة معناها الشعر المسترسل على الجبهة، وهي مشتقة من «نصا» ومعناها الإتصال والإرتباط، وأخذ بناصية فلان «كناية عن القهر والتسلط عليه» فما ورد في الجملة السابقة من الآية من قول الحق سبحانه: «مَنْ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا» إشارته إلى قدرته القاهرة على جميع الأشياء بحيث لا شيء في الوجود له طاقة المقاومة قبال هذه القدرة، لأنَّ من أحكم الإمساك على شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أي حيوان آخر، فإنه يُسلب منه القدرة على المقاومة عادة.

والغرض من هذه العبارة أنَّ المستكبرين المغترين وعبداء الأوثان والظالمين الباحثين عن السلطة لا يتصوروا أنَّه إذا أخلى لهم الميدان لعدَّة أيَّام فذلك دليل على قدرتهم على المقاومة أمام قدرة الله، فعليهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وأن ينزلوا من مركب غرورهم.

الثانية: إِنَّ جملة «رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من أروع التعابير في الحكاية عن قدرة الله المقترنة بعدله، لأنَّ المقتدرين في الغالب ظالمون ومتجاوزون للحدود، ولكن الله سبحانه مع قدرته التي لا نهاية لهم فهو دائماً على صراط مستقيم، وجادة صافية ونظم وحساب ودقة!.

كما ينبغي الانتباه إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنَّ كلام هود عليه السلام للمشركين كان يبيِّن هذه الحقيقة، وهي أنَّ الأعداء مهما لجوا في عنادهم وزادوا من لجاجتهم فإنَّ القائد الحق ينبغي أن يزيد من استقامته! فكما أن قوم هود خَوْفوه بشدَّة من آلهتهم و«أوثانهم»، فإنَّ هوداً في المقابل أُنذِرهم بنحو أشدَّ من قدرة الله

القاهرة!

ثمَّ أن هود قال لقومه في آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ بَلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

إشارة إلى أن لا يتصوروا أن هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنه أدى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته، وهذا درس لجميع القادة الحقيقيين وأئمة طريق الحق ألا يحسوا أبداً بالتعب والقلق من أعمالهم، وإن لم يقبل الناس دعوتهم.

وكما هدد القوم هوداً، فإنه هددهم بأشد من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتي فإن الله سيبيدكم في القريب العاجل ﴿وَيَسْتَخْلَفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾.

هذه سنة الله في خلقه وقانونه العام، إنه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدعوة والهداية والنعم الأخرى التي أنعمها عليهم فإنه سيبيدهم ويستخلف قوماً لائقين بمكانهم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.



الآيات

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا
بُعْدًا لِّلْعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

مركز تحقيق التفسير علوم إسلامي

اللعن الأبدي على القوم الظالمين:

في آخر الآيات التي نتحدث عن قصة قوم عاد ونبئهم هود إشارة إلى العقاب
الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: «ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه»
وتؤكد أيضاً نجات المؤمنين «ونجيناهم من عذاب غليظ».

الطريف هنا أن الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمة والكافرين ومجازاتهم،
بيّنت نجات المؤمنين وخلصهم، لئلا يتصور أن العذاب الإلهي إذا نزل يحرق
الأخضر واليابس معاً لأن الله عادل وحكيم وحاشاه أن يعذب ولو رجلاً مؤمناً
بين جماعة كفره يستحقون العذاب والعقاب.

لكن رحمة الله تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما

رأينا من قبل في قصة نوح أنه قبل شروع الطوفان كانت سفينة النجاة قد أُعدّت للمؤمنين، وقبل أن ينزل العذاب على قوم لوط ويدمر مدنها خرج لوط وعدد معدود من أصحابه من المدينة ليلاً بأمر الله.

وفي قوله تعالى: «نَجِّينَا» وتكرار هذه الكلمة في الآية مرتين أقوال مختلفة للمفسرين، فـ «نجينا» الأولى تعني خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجينا» الثانية تعني نجاتهم في المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهي أن الكلام لما كان على رحمة الله فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نجينا» لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شيء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهي أن آيات القرآن وصفت العذاب بالغليظ في أربعة موارد^(١).

وبملاحظة تلك الآية بدقة نستنتج أن العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التي جاءت في سورة إبراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا أن يكون، وذلك لأن عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنه أخف من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغي ملاحظته أيضاً، وهو أن قوم عاد - كما سيأتي بيان حالهم إن شاء الله - ورد ذكرهم في سورة القمر. والحاقة، وكانوا قومياً ذوي أبدان طوال خشنين، فشبهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ في تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلاً: «هذا البناء عادي» لذلك كان عذابهم

(١) وهي في السور التالية: ١ - إبراهيم، الآية ٢١٧ - لقمان، الآية ٣٤، ٣ - فصلت، الآية ١٥٠ - هود، الآية ٥٦.

مناسباً لهم لا في العالم الآخر بل في هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ في تفسير السور الآتفة الذكر.

ثم تلخّص الآيات ذنوب قوم عادٍ في ثلاثة مواضع:

الأول: بإنكارهم لآيات الله وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلاً واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوة نبيّهم إلا جحدوه «وتلك عاد جحدوا بآيات ربّهم».

والثاني: إنهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء الله «وعصوا رسله» وإنما جاءت الرسل بصيغة الجمع، إمّا لأن جميع دعوات الأنبياء هي نحو حقيقة واحدة وهي «التوحيد: وفروعه» فإنكار دعوة نبي واحد يُعدّ إنكاراً لجميع الأنبياء، أو أن هوداً دعاهم للإيمان بنبوة الأنبياء السابقين أيضاً،؟ وكانوا ينكرون ذلك.

والثالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة الله ومالوا لكل جبار عنيد «واتبعوا كل جبار عنيد».

فأيّ ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و«الجبار» يطلق على من يضرب ويقتل ويدمر من منطلق الغضب ولا يتبع أمر العقل، وبتعبير آخر هو من يُجبر سواه على أتباعه ويريد أن يغطي نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهري.

و«العنيد» هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر ممّا ينبغي، ولا يرضخ للحق أبداً. هاتان الصفتان تتجلّيان في الطواغيت والمستكبرين في كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون الى من يخالفهم بانزال أشد أنواع العقاب به بلا رحمة.

هنا يرِدُ سؤال: إذا كان الجبار يعطي هذا المعنى فلماذا ذكرت هذه الصفة لله، كما في سورة الحشر الآية (٢٣) وسائر المصادر الإسلامية.

والجواب هو أنّ «الجبار» - كما أشرنا آنفاً - مشتق إمّا من «الجبر» بمعنى القوّة

والقهر والغلبة، أو من مادة «الجبران» ومعناه: إزالة النقص من شيء.
ولكن «الجبار» سواء كان بالمعنى الأول أو الثاني فهو يستعمل بشكليه، وقد يراد به الذم إذا حاول الإنسان تجاوز النقص الذي فيه باستعلائه على الغير وتكبره وبالإدعاءات الخاطئة، أو أنه يحاول أن يجبر غيره على أن يكون تحت طاعته ورغبته، فيكون الأخير ذليلاً لأمره.

هذا المعنى ورد في كثير من آيات القرآن الكريم، وأحياناً تقترب معه صفات ذميمة أخرى، كآية المتقدمة التي اقترنت مع كلمة «عنيد» وفي الآية (٣٢) من سورة مريم نقرأ على لسان عيسى بن مريم رسول الله «ولم يجعلني جباراً شقيماً» كما نقرأ على لسان بني إسرائيل في خطابهم لموسى ﷺ في من سكن بيت المقدس من الظالمين حيث ورد في الآية (٢٢) من سورة المائدة «قالوا إن فيها قوماً جبارين».

ولكن قد تأتي كلمة «الجبار» من هذين الجذرين «الجبر» و«الجبران» وهي بمعنى المدح، وتطلق على من يسد حاجات الناس ويرفع نقصانهم ويربط العظام المتكسرة، أو أن تكون له قدرة وافرة بحيث يكون الغير خاضعاً لقدرته، دون أن يظلم أحداً أو يستغل قدرته ليسيء الاستفادة منها، ولذلك حين تكون كلمة الجبار بهذا المعنى فقد تقترب بصفات مدح أخرى، كما نقرأ في سورة الحشر الآية (٢٣) «الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر» وواضح أن صفات كالقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن لا تنسجم مع «الجبار» بمعنى الظالم أو «المتكبر» بمعنى من يرى نفسه أكبر من غيره، وهذا التعبير يدل على أن المراد هنا من «الجبار» هو المعنى الثاني.

ولكن حيث أن البعض فسروا «الجبار» ببعض معانيه دون الالتفات إلى معانيه المتعددة في اللغة، تصوّروا أن استعمال هذا اللفظ غير صحيح في شأن الله، وكذلك في ما يخص لفظ «المتكبر» ولكن بالرجوع إلى جذورهما اللغوية الأصيلة يرتفع

الإشكال^(١).

وفي الآية الأخيرة التي تنتهي بها قصّة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة والباطلة حيث تقول الآية: «واتبعوا في هذه الدنيا لعنة» وبعد الموت لا يبقى إلاّ خزيهم والصيت السيء «ويوم القيامة» يقال لهم «ألا إن عاداً كفروا ربّهم ألا بعداً لعاد قوم هود».

وكان يكفي تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتوكّد عليهم أولاً، ولتشير إلى أنّهم القوم الذين آذوا نبيهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم الله عن رحمته.

* * *

بحثان

١ - قوم عاد من منظار التاريخ

بالرغم من أنّ بعض المؤرّخين الغربيين كـ «أسبرينكل» أرادوا أن ينكروا قصّة «عاد» من الناحية التاريخية، وربما كان ذلك بسبب عدم توفر ذكر لهم في غير الآثار الإسلامية، ولم يجدوها في كتب العهد القديم «التوراة» ولكن هناك وثائق - تشير إلى قصّة عاد - مشهورة إجمالاً بين العرب في زمن الجاهلية، وقد ذكرهم شعراء العرب قبل الإسلام، وحتى في العصر الجاهلي كانوا يطلقون لفظ «العادي» على البناء العالي والقوي نسبة إلى عاد.

ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ لفظ «عاد» يُطلق على قبيلتين:

أحدهما: قبيلة كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثمّ زالت وزالت آثارها أيضاً،

(١) يراجع في هذا الصدد تاج العروس للزبيدي والمفردات للراغب مادة (جبر) و (كبر) ومجمع البيان وتفسير البيان ذيل الآية محل البحث وآيات سورة العشر الأخيرة.

ولم ينقل التاريخ البشري عنها إلا أساطير لا يُطمأن إلى صحتها . والتعبير الوارد في القرآن «عاداً الأولى» إشارة إلى هذه القبيلة .

ولكن في زمن التاريخ - ومن المحتمل أن يكون في حدود ٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح - وُجد قوم آخرون باسم «عاد» قطنوا الأحقاف أو اليمن أيضاً . وكان أولئك طوالاً جسماً أقوياء مقتدرين ، ولذلك كانوا يعدون من مشيري الحروب . كما أنهم كانوا من الناحية الحضارية متمدنين ، إذ كانت لهم مدن عامرة وأراضي خصبة خضراء وغابات نضرة ، كما وصفوا في القرآن ﴿... التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ .

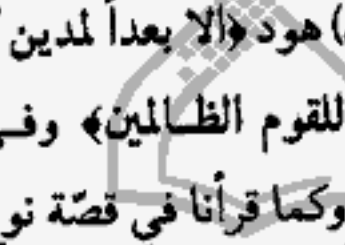
ولذلك يقول بعض المؤرخين «المستشرقين» : إنّ «عاداً» كانت تقطن في حدود «برهوت» إحدى نواحي حضرموت اليمن ، وعلى أثر البراكين وجبال النار التي حولها دمرت الكثير من قراهم ومدنهم وتفرقت بقاياهم .

على كل حال فإن هؤلاء القوم كانوا يعيشون في نعم وترف ، ولكن كما هي طريقة أغلب المتنعمين الغافلين والسكراري من أثر النعمة استغلّوا قدرتهم لظلم الآخرين واستثمارهم واستعمارهم .. واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأقروا عبادة الأوثان .

وحين دعاهم نبيهم هود عليه السلام بكل ما أوتي من جهد وجدّ ليضيء أفكارهم بنصحه ومواعظه ، ويتمّ الحجّة عليهم ، لم يكتفوا باهمال هذه الدعوة فحسب ، بل نهضوا لإسكات هذا الصوت النير لهذا النبي العظيم فمرة نسبوه إلى السفاهة والجنون ، ومرة هددوه بغضب آلهتهم ، ولكنّه وقف صامداً أمامهم كالجبل لا يخشى غضب هؤلاء القوم المغرورين الأقوياء ، حتى استطاع أن يكتسب منهم جماعة تقدّر بأربعة آلاف وطهر قلوبهم ودعاهم إلى منهاجه وعقيدته ، لكن بقي الآخرون مصرّين على عنادهم ولجاجتهم .

وأخيراً - كما سيأتي في سورة الذاريات والحاقة والقمر - غمرهم إعصار شديد لمدة سبعة ليالٍ وستة أيام جسوماً فأثنى على قصورهم فدمرها وعلى أجسادهم فجعلها كأوراق الخريف وفرقها تفريقاً، ولكن هود كان قد أبعده المؤمنين عن هؤلاء ونجّاهم من العذاب، وأصبحت حياة أولئك القوم ومصيرهم درساً كبيراً وعبرة لكل الجبابرة والأنانيين^(١).

٢ - اللعن الدائم الأبدي على «عاد» :

هذا التعبير وما شابهه ورد في آيات متعددة من القرآن الكريم في شأن أمم مختلفة، حيث يقول الله سبحانه بعد ذكر أحوالهم، كما في سورة هود الآية ٦٨: ﴿أَلَا بَعْدَ لَثُودٍ﴾ وفي آية أخرى (٨٩) هود ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ ثُودٌ﴾ وفي سورة المؤمنون، الآية (٤١) ﴿فَبَعْدَ لَلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وفي آية أخرى (٤٤) المؤمنون ﴿فَبَعْدَ لَقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكما قرأنا في قصّة نوح من قبل في هود الآية (٤٤) ﴿وَقِيلَ بَعْدَ لَلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.  وفي جميع هذه الآيات جاء اللعن شعاراً لمن أذنبوا ذنباً عظيماً، ويدور هذا اللعن مدار بعدهم عن رحمة الله.

وغالباً ما يطلق اليوم مثل هذا الشعار على المستعمرين والمستكبرين والظالمين، غاية ما في الأمر أن هذا الشعار القرآني آخاذاً وطريف إلى درجة أنه غير ناظر إلى بعد واحدٍ فحسب. لأننا حين نقول مثلاً: ﴿بَعْدَ لَلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإنّ هذا التعبير يشمل الابتعاد عن رحمة الله، والابتعاد عن السعادة، وعن كل خير وبركة ونعمة، وعن كونهم عباداً لله، طبعاً ابتعادهم عن الخير والسعادة هو انعكاس

(١) راجع تفسير الميزان، تفسير مجمع البيان، وكتاب أعلام القرآن.

لا ابتعادهم في تقوسهم وأرواحهم ومحيط عملهم عن الله وخلق الله ، لأن كل فكرة وعمل له أثر في الدار الآخرة يشابه ذلك العمل تماماً ولذلك فإن ابتعادهم هذا في هذه الدنيا أساس ابتعادهم في الآخرة عن رحمة الله وعفوه ومواهبه السنيّة^(١) .



(١) إن كلمة «بُعْداً» من الناحية النحوية مفعول مطلق للجملة المقدّرة (المحذوفة) «أبعدهم الله» وعلى القاعدة ينبغي أن يكون هذا المفعول المطلق للجملة المقدّرة (إبعاداً ، لا بُعْداً) لأنه مصدر «أبعد» لكن قد يأتي المصدر الثلاثي مكان الرباعي كما في قوله تعالى : «والله أنهتكم من الأرض نباتاً» .

الآية

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغَمَرَ كُفَّ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَىٰ إِلَٰهِي إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

التفسير
مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

قصة ثمود:

انتهت قصة «عاد قوم هود» بجميع دروسها بشكل مضغوط ، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا في وادي القرى بين المدينة والشام ، حسب ما تنقله التواريخ عنهم .

ونرى هنا أيضاً أن القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنه أخوهم ، وأي تعبير أروع وأجمل منه حيث بيّنا قسماً من محتواه في الآيات المتقدمة ، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلا الخير لجماعته «وإلى ثمود أخاهم صالحاً» .

ونجد أيضاً أن منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفي أي نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التي هي أساس جميع المتاعب «قال يا قوم اعبدوا الله ما

لكم من إله غيره» .

ولكي يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم الله المهمة التي استوعبت جميع وجودهم فقال : «هو انشأكم من الأرض» .

فأين هذه الأرض والتراب الذي لا قيمة له ، وأين هذا الوجود العالي والخلقة البديعة ؟ ترى هل يجيز العقل أن يترك الإنسان خالقه العظيم الذي لديه هذه القدرة العظيمة وهو واهب هذه النعم ، ثم يمضي إلى عبادة الأوثان التي تشير السخرية .

ثم يُذكر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم أخرى موجودة في الأرض حيث قال : «واستعمركم فيها» .

وأصل «الإستعمار» و «الإعمار» في اللغة يعني تفويض عمارة الأرض لأي كان، وطبيعي أن لازم ذلك يجعل الوسائل والأسباب في اختيار من يفوض إليه ذلك تحت تصرفه!

هذا ما قاله أرباب اللغة ، كالراغب في المفردات ، وكثير من المفسرين في تفسير الآية المتقدمة .

ويرد احتمال آخر ، وهو أن الله منحكم عمراً طويلاً في هذه الأرض ، وبديهي أن المعنى الأول وبملاحظة مصادر اللغة هو الأقرب والأصح كما يبدو .

وعلى كل حال فهذا الموضوع يصدق بمعنييه في ثمود ، حيث كانت لديهم أراضٍ خصبة وخضراء ومزارع كثيرة الخيرات والبركات ، وكانوا يبذلون في الزراعة ابتكارات وقدرات واسعة ، وإلى ذلك كله كانت أعمارهم مديدة وأجسامهم قوية وكانوا متطورين في بناء المساكن والبيوت ، كما يقول القرآن الكريم : «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين»^(١) .

الطريف هنا أن القرآن لم يقل : إن الله عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم،

وإنما قال : وفوض إليكم إعمار الأرض «واستعمركم فيها» وهي إشارة إلى أن الوسائل معدة فيها لكل شيء وعليكم إعمارها بالعمل والسعي المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها . وبدون ذلك لا حظ لكم في الحياة الكريمة . كما يستفاد ضمناً أنه ينبغي من أجل الإعمار أن يعطي المجال للأمة معينة في العمل، وتجعل الأسباب والوسائل اللازمة تحت تصرفها وفي اختيارها . فإذا كان الأمر كذلك «فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» لدعواتكم .

الإستعمار في القرآن وفي عصرنا الحاضر:

لاحظنا في الآيات المتقدمة أن نبي الله «صالحاً» من أجل هداية وتربية قومه الضالين «ثمود» ذكرهم بعظيم خلق الله لهم من التراب .. وتفويض إعمار الأرض إليهم إذ قال : «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ...» .

لكن هذه الكلمة مع جمالها الخاص وجذابتها التي تعني العمران وتفويض الاختيارات وإعداد الوسائل اللازمة وتهيأتها ، تبدلت هذه الكلمة في عصرنا إلى درجة أنها مسخت وأصبحت تعطي معنى معاكساً لمفهوم القرآن تماماً .

وليست كلمة الإستعمار وحدها انتهت إلى هذا المصير المشؤوم ، فهناك كلمات كثيرة في العربية وفي لغات أخرى مسخت وحُرِّفت وتبدلت وانقلبت رأساً على عقب ، مثل كلمات «الحضارة» و«الثقافة» و«الحرية» وفي ظلال هذه التحريفات تأخذ هذه الكلمات وأمثالها طريقها إلى التغرّب والبعد عن معناها ، وتتحول لعبادة المادة وأسر الناس وإنكار الحقائق والتوغل في كل أنواع الفساد وما إلى ذلك .

وعلى كل حال ، فإن معنى «الإستعمار» في عصرنا ومفهومه الواقعي هو «استيلاء الدول العظمى السياسية والصناعية على الأمم المستضعفة قليلة القدرة ، بحيث تكون نتيجة هذا «الإستيلاء» وهذه «الغارة» امتصاص دمائهم وسلب

خيراتهم ومصادرة حياتهم .

هذا الإستعمار الذي له أوجه شؤم مختلفة ، يتجسم مرّة بشكل «ثقافي» وأخرى بوجه «فكري» وثالثة بوجه «إقتصادي» ورابعة بوجه «سياسي» وقد يبدو بوجه «عسكري» أيضاً ، وهو الذي بدل دنيانا وجعلها سوداء مظلمة ، فالأقلية في هذه الدنيا لديهم كل شيء ، والأكثرية العظمى فاقدة لكل شيء هذا الإستعمار هو السبب في الحروب والدمار والانحرافات والفساد والتسابق التسليحي الذي يقصم الظهر .

القرآن استعمل لهذا المفهوم مفردة «الإستضعاف» التي تنطبق تماماً على هذا المعنى أي «جعل الشيء ضعيفاً» بالمعنى الواسع والشامل للكلمة ، جعل الفكر ضعيفاً ، وجعل الإقتصاد ضعيفاً ، وجعل السياسة ضعيفة .. الخ ..

وقد اتسع مجال الإستعمار إلى درجة بحيث أصبحت كلمة الإستعمار «إستعمارية» أيضاً ، وذلك لأنّ مفهومها اللغوي قد انقلب رأساً على عقب تماماً . وعلى كل حال ، فإن الإستعمار من القصص الطويلة المشيرة للحزن والألم ، بحيث يمكن أن يقال أنّه يستوعب تاريخ البشرية أجمع وإن تغيّر وجهه دائماً ، ولكن من غير المعلوم أنّه متى يزول من المجتمعات الإنسانية ، وتقوم حياة البشر على أساس التعاون والإحترام المتبادل بين الناس والمساعدة ليتقدم الواحد بعد الآخر في جميع المجالات ... ؟!



الآيات

قَالُوا يُصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٧﴾ قَالَ
يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ
يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ لَمَّا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٨﴾
وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
مَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٧٠﴾

التفسير

والآن لنلاحظ ما الذي كان جواب المخالفين لنبي الله «صالح عليه السلام» إزاء منطقته
الحي الداعي إلى الحق .

لقد استفادوا من عامل نفسي للتأثير على النبي «صالح» أو على الأقل
للمحاولة في عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس ، وبالتعبير
العامي الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه ، فقالوا: «يا صالح قد كنت فينا

مرجواً قبل هذا» وكنا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك في أمورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرايتك ، ولم نشك في إشفائك واهتمامك بنا ، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح ، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا ، فأبدت عدم احترامك للأوثان ولل كبار وسخرت من عقولنا «اتنهانا عما كان يعبد آباؤنا» والحقيقة أننا نشك في دعوتك للواحد الأحد «وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب» .

نجد هنا أن القوم الضالين يلتجؤون تحت غطاء الاسلاف والآباء الذين تحيط بهم هالة من القدسية لتوجيه أخطائهم وأعمالهم وأفكارهم غير الصحيحة ، وهو ذلك المنطق القديم الذي كان يتذرع به المنحرفون وما زالوا يتذرعون به في عصر الذرة والفضاء أيضاً .

لكن هذا النبي الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة في روحه الكبيرة فأجابهم قائلاً: «يا قوم أرايتم إن كنت على بيتي من ربي وآتاني منه رحمة» أفأسكت عن دعوتي ولا أبلغ رسالة الله ولا أواجه المنحرفين «فن ينصروني من الله إن عصيته» .. ولكن اعلّموا أن كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا يزيدني إلا إيماناً بضلالتكم وخسرانكم : «فما تزيدوني غير تخسير ..» .

وبعد هذا كله ومن أجل البرهان على صدق دعوته ، وبيان المعاجز الإلهية التي دونها قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التي هي آية من آيات الله وقال : «ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية» فتركوها وذروها تأكل في أرض الله «ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم» .

ناقة صالح :

«الناقة» في اللغة هي أنثى الجمل ، وهي الآية الآنفه في آيات أخرى أضيفت

إلى لفظ الجلالة «الله»^(١) وهذه الإضافة تدل على أن هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الالتفات إلى ما عبّر عنها في الآية المتقدمة بأنها «آية» وعلامة إلهية ودليل على الحقائق، يتّضح أنها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة!

ولكن لم ترد في القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل، غاية ما في الأمر أننا نعرف بأنها لم تكن ناقة عادية كالنوق الأخريات، والشيء الوحيد المذكور عنها في القرآن - وفي موردين فحسب - أن صالحاً أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم وسهم للناقة، فلهم شرب يوم منه ولها شرب يوم آخر «قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم»^(٢) كما جاء في سورة القمر أيضاً «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر»^(٣).

وفي سورة الشمس إشارة مختصرة إليها أيضاً، حيث يقول سبحانه: «فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها»^(٤).

ولكن لم يتّضح كيف كان تقسيم الماء خارقاً للعادة؟

هناك احتمالان:

الأول: إن الناقة كانت تشرب ماءً كثيراً بحيث تأتي على ماء «النبع» كله.

والثاني: إنه حين كانت ترد الماء لا تجرؤ الحيوانات الأخرى على الورود إلى الماء معها.

أما كيف كانت هذه الناقة تستفيد من جميع الماء؟ فيوجه هذا الاحتمال بأن ماء

(١) مثل هذه الإضافة يقال لها في المصطلح الأدبي إضافة تشريفية. بمعنى أنها إضافة تندل على شرف الشيء وأهميته، وفي الآية المتقدمة يلاحظ نموذجان من هذا النوع ١ - ناقة الله. ٢ - أرض الله. وقد ورد في موارد أخرى غير هذه الكلمات.

(٢) الشعراء، ١٥٥.

(٣) القمر، ٢٨.

(٤) الشمس، ١٣.

القرية كان قليلاً كماء القرى التي ليس فيها أكثر من عين ماء واحدة ، وأهل القرية مجبورون على أن يدخروا الماء تمام اليوم في حفرة خاصة ليجتمع الماء في العين مرة أخرى .

ولكن في جزء آخر من سورة الشعراء يتجلى لنا أن ثمود لم يعيشوا في منطقة قليلة الماء ، بل كانت لهم غابات وعيون ونخيل ومزارع حيث تقول الآيات : «أتتركون في ما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم»^(١) وعلى كل حال فإن القرآن ذكر قصّة ناقة صالح بشكل مجمل غير أننا نقرأ في روايات كثيرة عن مصادر الشيعة وأهل السنة أيضاً ، أن هذه الناقة خرجت من قلب الجبل ، ولها خصائص أخرى ليس هنا مجال سردها .

وعلى كل حال . فمع جميع ما أكّده نبيهم العظيم «صالح» في شأن الناقة ، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها ، لأن وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبي صالح ، لذلك فإن جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون في دعوة صالح خطراً على مصالحهم ، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائهم استعمارهم للتقويض والانهيار ، فتأمروا للقضاء على الناقة وهياً واجماعة لهذا الغرض ، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض «ففقروها» .

«فقروها» مشتقة من مادة «العقر» على وزن «الظلم» ومعناه : أصل الشيء وأساسه وجذره ، و«عقرت البعير» معناه نحرتة واحتززت رأسه ، لأن نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل ، وأحياناً تستعمل هذه الكلمة لظعن الناقة في بطنها . أو لتقطيع أطراف الناقة بدل النحر وكل ذلك في الواقع يرجع إلى معنى واحد «فتأمل» !.... .

العلاقة الدينية :

الطريف أننا نقرأ في الروايات الإسلامية أن الذي عقر الناقة لم يكن إلا واحداً، لكن القرآن ينسب هذا العمل إلى جميع المخالفين من قوم صالح «ثمود» ويقول بصيغة الجمع : «فَعَقَرُوهَا» وذلك لأن الإسلام يعدّ الرضا الباطني في أمر ما والارتباط معه ارتباطاً عاطفياً بمنزلة الإشتراك فيه ، وفي الواقع فإنّ الأمر على هذا العمل لم يكن له جانب فردي ، وحتى ذلك الذي أقدم على عمله لم يكن معتمداً على قوته الشخصية فجميعهم كانوا مرتاحين لعمله وكانوا يسندونه ، ومن المسلمّ أنّه لا يمكن أن يعدّ هذا العمل عملاً فردياً . بل يعدّ عملاً جماعياً . يقول الإمام علي عليه السلام : «وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لتأ عمّوه بالرضا»^(١).

وهناك روايات متعددة في المضمون ذاته نقلت عن نبي الإسلام وأهل بيته الكرام ، وهي تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء ، ونورد هنا على سبيل المثال - لا الحصر - عدداً منها .

قال رسول الله ﷺ «من شهد أمراً فكرهه كمن غاب عنه ومن غاب عن أمرٍ فرضيه كمن شهد»^(٢).

ويقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام «لو أن رجلاً قُتل في المشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل»^(٣).
ونقل عن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنّه قال : «الراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه

(١) نهج البلاغة ، ومن كلام له ، رقم ٢٠١ .

(٢) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، ص ٤٠٩ .

(٣) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، ص ٤١٠ .

وعلى كل داخل في باطل إثم إنثم العمل به وإثم الرضا به»^(١).

ومن أجل أن نعرف عمق العلاقة الفكرية والعاطفية في الإسلام وسعتها بحيث لا يُعرف لها حد من جهة الزمان والمكان ، فيكفي أن نذكر هذا الكلام للإمام علي عليه السلام من نهج البلاغة لنلفت إليه الأنظار : «حين انتصر الإمام علي في حرب الجمل على المتمردين ومثيري الفتنة وفرح أصحاب علي بهذا الانتصار الذي يُعد انتصاراً للإسلام على الشرك والجاهلية ، قال له أحد أصحابه : «وودت لو أن أخي شهدنا هنا في الميدان ليرى انتصارك على عدوك» .

فالتفت الإمام عليه السلام إليه قائلاً : «أهوى أخيك معنا» فقال : «نعم» فقال الإمام عليه السلام : «شَهِدْنَا» ثم قال : «ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»^(٢).

ولا شك أن أولئك الذين يساهمون في منهج ما ويشتركون فيه ويتحملون كل مشاكله وأتاعبه ، لهم امتياز خاص ، ولكن هذا لا يعني أن الآخرين لم يشتركوا في ذلك أبداً ، بل سواء كانوا في عصرهم أو العصور والقرون المقبلة ولهم ارتباط عاطفي وفكري بهم فهم مشتركون معهم بنحو من الانحاء .

هذه المسألة التي قد لا نجد لها نظيراً في أي مذهب من مذاهب العالم ، قائمة على أساس من حقيقة اجتماعية هامة ، وهي أن المنسجمون فكرياً وعقائدياً حتى لو لم يشتركوا في منهج معين ، إلا أنهم سيدخلون قطعاً في مناهج مشابهة له في محيطهم وزمانهم ، لأن أعمال الناس منعكسة عن أفكارهم ، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بمذهب معين ولا يظهر أثره في عمله .

والإسلام منذ الخطوة الأولى يهتم بإيجاد إصلاحات في روح الإنسان ونفسه لإصلاح عمله تلقائياً وعلى ضوء الروايات المتقدمة فإن أي مسلم يبلغه أن فلاناً

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١١ .

(٢) نهج البلاغة، الكلام رقم ١٢ .

عمل عملاً صالحاً - أو سيئاً - ينبغي أن يتخذ الموقف الصحيح من ذلك العمل فوراً ويجعل قلبه وروحه منسجمين مع «الصالحات» وأن ينفر من «السيئات» فهذا السعي و«الجد» الداخلي لا شك سيكون له أثر في أعماله ، وسيتعمق الترابط بين الفكر والعمل .

وفي نهاية الآية نقرأ أن النبي «صالحاً» بعد أن رأى تمرّد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم «فقال تمتعوا في دارك ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب» فهو وعد الله الذي لا يتغير وما أنا من الكاذبين .



مركز تحقيقات کتاب و تریز علوم اسلامی

الآيات

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنِجْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْمِئِدُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جُثِمْنَ ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَسْغِنُوا
فِيهَا إِلَّا إِنَّ تُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ التَّمُودِ ﴿١٨﴾

مركز تحقيق كتاب التفسير

نهاية ثمود «قوم صالح»:

في هذه الآيات يتبين كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام» فتقول الآيات: «فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا» لا من العذاب الجسماني والمادي فحسب، بل «ومن خزي يومئذ»^(١).

لأن الله قوي وقادر على كل شيء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أي شيء ولا قدرة فوق قدرته «إن ربك هو القوي العزيز». وعلى هذا فإن نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبلى بعذاب

(١) الخزي في اللغة الإنكسار الذي يصيب الإنسان سواء من نفسه أو من سواء، ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

الله ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة الله تعالى .
 إن رحمة الله تستوجب ألا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين ، وألا يؤاخذ
 المؤمنون بجريرة غير المؤمنين «وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم
 جاثين» وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح «كأن لم
 يغنوا فيها إلا أن ثمود كفروا بربهم ألا بعداً لثمود» عن لطف الله ورحمته .

* * *

ملاحظات

١ - نجد في هذه الآيات أن رحمة الله بالنسبة للمؤمنين واسعة وشاملة ، بحيث
 تنقلهم جميعاً إلى مكان آمن ، ولا تحرق الأخضر واليابس بالعذاب .
 ومن الممكن أن تحدث حوادث مؤلمة كالسيول والأوبئة والزلازل التي قد
 تأتي على الصغير والكبير ، وليست هذه الحوادث ترجمة لعذاب الله ، وإلا فإنه
 محال على الله في منطق عدله أن يعذب حتى واحداً بريئاً بجرم ملايين المذنبين .
 طبعاً يمكن أن يوجد أناس سايكتون بين جماعة مذنبين فيؤخذوا بوزرهم ،
 لأنهم لا يردعونهم عن الظلم والفساد ، فمصيرهم - إذاً - سيكون كمصير المجرمين .
 ولكنهم إذا عملوا بواجبهم فمحال أن تنزل عليهم حادثة أو يحيق بهم العذاب
 «فصلنا هذا الموضوع في الأبحاث المرتبطة بمعرفة الله ونزول البلاء والحوادث
 في كتب معرفة الله»^(١) .

٢ - ويظهر جيداً من الآيات المتقدمة أن عقاب المعاندين والطغاة لا يختص
 بالجانب المادي فحسب ، بل يشمل الجانب المعنوي ، لأن نتيجة أعمالهم
 ومصيرهم المخزي وحياتهم الملوثة تسجل فصولها في التاريخ بما يكون عاراً
 عليهم ، في حين يكتب التاريخ حياة المؤمنين بسطور من ذهب وصحائف من

(١) في المجلد الخامس من التفسير الأمثل وردت توضيحات مفيدة لفهم هذا المقصود .

نور .

٣ - ما المراد من الصيحة ؟

الصيحة في اللغة معناها الصوت العظيم الذي يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عادة .. ولكن لا تختص بهذا المعنى ، بل تشمل كل صوت عظيم .. نقرأ في القرآن الكريم أن عدّة أقوام آثمين أخذتهم الصيحة من السماء عقاباً لهم على ذنوبهم ، «ثمود» الذين نتحدث عنهم «وقوم لوط» كما نقرأ في سورة الحجر الآية (٧٣) «قوم شعيب» كما ذكروا في سورة هود الآية (٩٤) .

ويستفاد من بعض الآيات الأخرى من القرآن أن قوم صالح «ثموداً» عوقبوا بالصاعقة «فإن أعرضوا قل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود»^(١) ومن هنا يتبين أن المراد من الصيحة هو صوت الصاعقة الموحش!

سؤال : هل يستطيع صوت الصاعقة الموحش أن يبيد قوماً أو جماعة بأسرهم؟! والجواب : نعم ، حتماً! .. لأننا نعرف أن الأمواج الصوتية إذا تجاوزت حداً معيناً تستطيع أن تكسر الزجاج ، وقد تهدم على أثرها عمارات ، وقد تشل أعضاء البدن الداخلية .

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتي وتكون سرعتها أكثر من سرعة أمواج الصوت يسقط بعض الأفراد فاقدو الوعي ، أو تسقط الحامل جنينها بسبب ذلك وقد يتكسر جميع الزجاج في عمارات المنطقة التي تمرّ عليها هذه الطائرات . وطبيعي أنه إذا كانت شدة الأمواج الصوتية أكثر ممّا ذكرنا ، فمن السهولة أن تحدث اختلالاً قاتلاً في شبكات الاعصاب الدماغ وحركات القلب وتسبب موت الإنسان!

ومن الثابت - طبقاً لما في آيات القرآن - أن نهاية هذا العالم تكون بصيحة

عامّة أيضاً.. «ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون»^(١)، كما أنّ يوم القيامة يبدأ بصيحة موقظة أيضاً «إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون».

٤ - «الجاثم» من مادة «جثم» ومعناه المصدري الجلوس على الركب، كما يأتي بمعنى السقوط للوجه (ولزيادة التوضيح في هذا المجال يراجع في التفسير الأمثل ذيل الآية ٧٩ من سورة الأعراف).

ويستفاد طبعاً من التعبير بـ «جاثمين» أنّ الصيحة من السماء كانت السبب في موتهم، إلّا أنّ أجسادهم كانت ملقاة على الأرض، لكن يستفاد من بعض الروايات أنّ الصاعقة أحرقتهم بنارها، ولا منافاة بين الأمرين، لأنّ أثر الصوت الموحش للصاعقة يتّضح فوراً، وأمّا آثار حرقها - وخاصة لمن هم داخل البيوت - فيظهر بعدئذٍ.

٥ - لفظ «لم يغنوا» مشتق من مادة «غني» ومعناه الإقامة في المكان، ولا يبعد أن يكون مأخوذاً من المفهوم الأصلي وهو «الغنى» ومعناه عدم الحاجة، لأنّ الغني غير المحتاج له بيت مهيباً ومعدّاً وليس مجبوراً أن ينتقل كل زمان من منزل إلى آخر - والتعبير بجملة «كأن لم يغنوا فيها» وارد في ثمود، كما هو وارد في قوم شعيب، ومفهوم هذا التعبير أنّ طومار حياتهم قد طوي حتى تظن أنّهم لم يكونوا من سكنة هذه الأرض.

* * *

نهاية المجلد السادس

فهرس الموضوعات

- ٥ تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٣
- ٥ شرك أهل الكتاب

بحوث

- ٦ ١ - من هو عزيز؟!
- ٨ ٢ - لم يكن المسيحُ ابن الله
- ٨ ٣ - اقتباس هذه الخرافات
- ٩ ٤ - ما هو معنى (قاتلهم الله)
- ١١ درس تعليمي

ملاحظات

- ١٣ المستقبل للإسلام

بحوث

- ١٤ ١ - المراد «الهدى ودين الحق»
- ١٥ ٢ - انتصار المنطق أم انتصر القوة؟
- ١٦ ٣ - القرآن وظهور المهدي
- ١٨ الروايات الإسلامية في المهدي «عجل الله فرجه الشريف»
- ١٩ ثمّ تضيف الرسالة
- ٢١ الانتظار وأثاره البناءة:

٢٢	الزوايا الشريفة:
٢٣	مفهوم الإنتظار:
٢٥	الإنتظار يعنى الإستعداد الكامل:
٢٦	الحكمة الأولى، بناء الشخصية الفردية:
٢٧	الحكمة الثانية، التعاون الإجتماعي:
٢٨	الحكمة الثالثة، المنتظرون بحق لا يذوبون في المحيط الفاسد:
٣١	تفسير الآيتان: ٣٤ - ٣٥
٣١	كنز الأموال:
٣٥	حتى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟
٣٨	أبوذر والإشترابية!!
٤٢	جزاء من يكثر!
٤٤	تفسير الآيتان: ٣٦ - ٣٧
٤٤	وقف القتال «الإجباري»:



٤٧	١- فلسفة الأشهر الحرم!
٤٧	٢- مفهوم النسيء وفلسفته في الجاهلية
٤٩	٣- وحدة الكلمة مقابل العدو
٤٩	٤- كيف يُزَيَّنُ للناس سوء أعمالهم؟
٥١	تفسير الآيتان: ٣٨ - ٣٩
٥١	سبب النزول
٥٢	التحرك نحو سوح الجهاد مرة أخرى

ملاحظات

٥٦	تفسير الآية: ٤٠
٥٦	المدد الإلهي للرسول في أشد اللحظات:
٥٨	قصة صاحب النبي في الغار:

٥٩٤ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

٦٠	تفسير الآيات: ٤١-٤٢
٦٠	الكسالى الطامعون
٦٤	تفسير الآيات: ٤٣-٤٥
٦٤	التعرف على المنافقين!
٦٨	تفسير الآيات: ٤٦-٤٨
٦٨	عدم وجودهم أفضل:
٧٢	تفسير الآية: ٤٩
٧٢	سبب النزول
٧٣	المنافقون المتذرعون:

ملاحظات

٧٥	تفسير الآيات: ٥٠-٥٢
٧٧	١- المقادير وسعي الإنسان
٧٨	٢- لا وجود للهزيمة في قاموس المؤمنين
٧٩	٣- صفات المنافقين
٨٠	تفسير الآيات: ٥٣-٥٥

ملاحظات

٨٥	تفسير الآيات: ٥٦-٥٧
٨٥	علامة أخرى للمنافقين:
٨٧	تفسير الآيات: ٥٨-٥٩
٨٧	سبب النزول
٨٨	الأنانيون السفهاء:
٩٠	تفسير الآية: ٦٠
٩٠	موارد صرف الزكاة ودقاتها:

بحوث

- ١- الفرق بين الفقير والمسكين ٩٣
- ٢- هل يجب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية؟ ٩٤
- ٣- متى شرعت الزكاة؟ ٩٥
- ٤- من هم المقصودون بـ (المؤلفة قلوبهم)؟ ٩٥
- ٥- دور الزكاة في الإسلام ٩٦
- ٦- ما الفرق بين العطف بـ «اللام أو في»؟ ٩٧
- تفسير الآية: ٦١ ١٠٠
- سبب النزول ١٠٠
- هذا حسن لا قبيح! ١٠٠
- تفسير الآيتان: ٦٢- ٦٣ ١٠٤
- سبب النزول ١٠٤
- المنافقون والتظاهر بالحق ١٠٥
- تفسير الآيات: ٦٤- ٦٦ ١٠٧
- سبب النزول ١٠٧
- مؤامرة أخرى للمنافقين: ١٠٨
- تفسير الآيات: ٦٧- ٧٠ ١١٢
- علامات المنافقين: ١١٣
- تكرر التأريخ والإعتبار به: ١١٥
- تفسير الآيتان: ٧١- ٧٢ ١١٩
- صفات المؤمنين الحقيقيين: ١١٩
- تفسير الآية: ٧٣ ١٢٤
- جهاد الكفار والمنافقين: ١٢٤
- تفسير الآية: ٧٤ ١٢٦
- سبب النزول ١٢٦
- مؤامرة خطيرة: ١٢٨
- تفسير الآيات: ٧٥- ٧٨ ١٣١

٥٩٦ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

١٣١ سبب النزول

١٣٢ المنافقون وقلّة الاستيعاب:

ملاحظات

١٣٨ تفسير الآيتان: ٧٩ - ٨٠

١٣٨ سبب النزول

١٣٩ خبث المنافقين:

ملاحظات

١٤٥ تفسير الآيات: ٨١ - ٨٣

١٤٥ إعاقة المنافقين مرّة أخرى:

ملاحظات

١٥٠ تفسير الآيتان: ٨٤ - ٨٥

١٥٠ أسلوب أشدّ في مواجهة المنافقين:

١٥٢ وهنا يجب الإنتباه لمسألتين:
مكتبة تكملة علوم القرآن

١٥٥ تفسير الآيات: ٨٦ - ٨٩

١٥٥ دناءة الهمة

١٥٩ تفسير الآية: ٩٠

١٦١ تفسير الآيات: ٩١ - ٩٣

١٦١ سبب النزول

١٦٢ العشق للجهاد ودموع الحسرة:

ملاحظات

١٧١ تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٦

١٧١ سبب النزول

١٧٢ لا تصفوا إلى أعذارهم وأيمانهم الكاذبة:

فهرس الموضوعات ٥٩٧

تفسير الآيات: ٩٧-٩٩ ١٧٥

الأعراب القساة والمؤمنون: ١٧٥

بحوث

١- التّجمعات الكبيرة ١٧٩

٢- الأعراب من سكان المدن ١٨٠

تفسير الآية: ١٠٠ ١٨٢

السّابقون إلى الإسلام: ١٨٢

بحوث

١- موقع السابقين ١٨٤

٢- من هم التابعون؟ ١٨٥

٣- من هو أوّل من أسلم؟ ١٨٦

٤- هل كان الصحابة كلهم صالحين؟ ١٨٩

تفسير الآية: ١٠١ ١٩٣

تفسير الآية: ١٠٢ ١٩٦

سبب النزول ١٩٦

الثوابون: ١٩٧

تفسير الآيات: ١٠٣-١٠٥ ١٩٩

الزّكاة مطهرة للفرد والمجتمع: ١٩٩

ملاحظات

التّوبة والجبران: ٢٠٥

ملاحظات

١- مسألة عرض الأعمال ٢٠٦

٢- هل الرّؤية هنا تعني النظر؟ ٢٠٩

تفسير الآية: ١٠٦ ٢١٠

٢١٠	سبب النزول
٢١١	سؤال:
٢١٤	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١٠
٢١٤	سبب النزول
٢١٧	معبد وثني في صورة مسجد

بحوث

٢٢٢	١- درس كبير
٢٢٥	٢- النفي لا يكفي لوحده!
٢٢٦	٣- شرطان أساسيان
٢٢٧	تفسير الآيتان: ١١١ - ١١٢
٢٢٧	تجارة لا نظير لها:
٢٢٣	تفسير الآيتان: ١١٣ - ١١٤
٢٢٣	سبب النزول
٢٢٣	ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء:

مركز تحقيق كتاب مؤثر علوم إسلامي
ملاحظات

٢٣٥	١- رواية موضوعة!
٢٣٨	٢- لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟
٢٣٩	٣- ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء
٢٤٠	تفسير الآيتان: ١١٥ - ١١٦
٢٤٠	سبب النزول
٢٤١	العقاب بعد البيان:
٢٤٢	جواب سؤال
٢٤٤	تفسير الآيتان: ١١٧ - ١١٨
٢٤٤	سبب النزول
٢٤٤	درس كبير!

فهرس الموضوعات ٥٩٩

الحصار الاجتماعي للمذنبين: ٢٤٧

بحوث

١- المراد من توبة الله على النبي ٢٤٨

٢- غزوة تبوك وساعة العسرة ٢٤٩

٣- ما هو معنى (خَلَّفُوا)؟ ٢٥٠

٤- درس كبير دائم ٢٥١

٥- غزوة تبوك ونتائجها ٢٥١

تفسير الآية: ١١٩ ٢٥٥

كونوا مع الصادقين: ٢٥٥

هل المراد من الصادقين هم المعصومون فقط؟ ٢٥٧

تفسير الآيتان: ١٢٠- ١٢١ ٢٦٠

معاناة المجاهدين لا تبقى بدون ثواب: ٢٦٠

تفسير الآية: ١٢٢ ٢٦٤

سبب النزول ٢٦٤

محاربة الجهل وجهاد العدو: ٢٦٥



تفسير الآية: ١٢٣ ٢٧٠

قتال الاقرب فالاقرب: ٢٧٠

تفسير الآيتان: ١٢٤ - ١٢٥ ٢٧٣

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: ٢٧٣

ملاحظات

تفسير الآيتان: ١٢٦ - ١٢٧ ٢٧٧

تفسير الآيتان: ١٢٨ - ١٢٩ ٢٨٠

آخر آيات القرآن المجيد: ٢٨٠

٦٠٠ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

سُورَةُ يُونُسَ

٢٨٧	«سورة يونس عليه السلام»
٢٨٧	محتوى وفضيلة هذه السورة
٢٨٩	تفسير الآيتان: ١ - ٢
٢٨٩	رسالة النبي:
٢٩٣	تفسير الآيتان: ٣ - ٤
٢٩٣	معرفة الله والمعاد:
٢٩٨	تفسير الآيتان: ٥ - ٦
٢٩٨	جانب من آيات عظمة الله:

ملاحظات

٣٠٠	وهنا ملاحظات ينبغي الانتباه لها:
٣٠٥	تفسير الآيات: ٧ - ١٠
٣٠٥	أهل الجنة والنار:

ملاحظات

٣١٠	تفسير الآيتان: ١١ - ١٢
٣١٠	الهمج الرّاع:
٣١٢	الإنسان في القرآن الكريم:
٣١٥	تفسير الآيتان: ١٣ - ١٤
٣١٥	الاعتبار بالظالمين السابقين:

ملاحظات

٣١٧	تفسير الآيات: ١٥ - ١٧
٣١٧	سبب النزول

ملاحظات

٣٢٢	تفسير الآية: ١٨
-----	-----------------

٦٠١.....	فهرس الموضوعات
٣٢٢	آلهة بدون خاصية
٣٢٤	تفسير الآية: ١٩
٣٢٦	تفسير الآية: ٢٠
٣٢٦	المعجزات المقترحة

ملاحظات

٣٢٧	وهنا ملاحظتان ينبغي الالتفات إليهما:
٣٢٩	تفسير الآيات: ٢١-٢٣

ملاحظات

٣٣٢	وهنا يجب الالتفات إلى عدة ملاحظات:
٣٣٤	تفسير الآيتان: ٢٤-٢٥
٣٣٤	لوحة الحياة الدنيا:

ملاحظات

٣٣٨	تفسير الآيتان: ٢٦-٢٧
٣٣٨	بيض الوجوه وسود الوجوه:
٣٤١	تفسير الآيات: ٢٨-٣٠
٣٤١	مشهد من قيامة عبدة الأوثان:
٣٤٥	تفسير الآيات: ٣١-٣٣
٣٥٠	تفسير الآيات: ٣٤-٣٦
٣٥٠	واحدة من علامات الحق والباطل:

ملاحظات

٣٥٤	تفسير الآيات: ٣٧-٤٠
٣٥٤	عظمة دعوة القرآن وحقانيته:
٣٥٧	مظاهر وتجليات جديدة من إعجاز القرآن:
٣٦٣	الجهل والإنكار:

٦٠٢ الأمتل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤ ٣٦٤

العمي والصم: ٣٦٤

ملاحظات

وهنا ينبغي الالتفات لملاحظتين: ٣٦٦

تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٧ ٣٦٧

تفسير الآيات: ٤٨ - ٥٢ ٣٧٠

العذاب الإلهي واختيارات الرسول: ٣٧٠

ملاحظات

تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٦ ٣٧٥

لامعنى للشك في العذاب الإلهي: ٣٧٥

ملاحظات

تفسير الآيتين: ٥٧ - ٥٨ ٣٧٨

القرآن رحمة إلهية كبرى: ٣٧٨

مركز تحقيق تكملة تفسير

١- هل أن القلب هو مركز الإحساسات؟ ٣٨١

٢- ما هو الفرق بين الفضل والرحمة؟ ٣٨٢

تفسير الآيات: ٥٩ - ٦١ ٣٨٤

هو الشاهد في كل مكان! ٣٨٤

ملاحظات

تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٥ ٣٩١

طمأنينة الروح في ظل الإيمان: ٣٩١

ملاحظات

١- ما هو المراد من البشارة في الآية؟ ٣٩٥

٦٠٣	فهرس الموضوعات
٣٩٧	٢- الرويات الواردة عن أهل البيت:
٣٩٩	تفسير الآيتان: ٦٦- ٦٧
٣٩٩	جانب من آيات عظمتة:

ملاحظات

٤٠٢	تفسير الآيات: ٦٨- ٧٠
-----	----------------------

ملاحظات

٤٠٥	تفسير الآيات: ٧١- ٧٣
٤٠٥	جانب من جهاد نوح:
٤٠٩	تفسير الآية: ٧٤
٤٠٩	الرسل بعد نوح:

ملاحظات

٤١١	تفسير الآيات: ٧٥- ٧٧
٤١١	جانب من جهاد موسى وهارون:
٤١٥	تفسير الآيات: ٧٩- ٨٢
٤١٥	المرحلة الثانية:
٤١٨	تفسير الآيات: ٨٣- ٨٦
٤١٨	المرحلة الثالثة:
٤٢٢	تفسير الآيات: ٨٧- ٨٩
٤٢٢	المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة:
٤٢٦	تفسير الآيات: ٩٠- ٩٣
٤٢٦	الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين:
٤٣١	تفسير الآيات: ٩٤- ٩٧
٤٣١	لاتدع للشك طريقاً إلى نفسك!
٤٣٢	هل كان النبي شاكاً؟!:

٦٠٤ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

٤٣٥	تفسير الآية: ٩٨
٤٣٥	الأمة التي آمنت في الوقت المناسب!
٤٣٦	قصة إيمان قوم يونس:
٤٣٨	تفسير الآيتان: ٩٩ - ١٠٠
٤٣٨	لاخير في الإيمان الإيجابي:

ملاحظات

٤٤١	تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٣
٤٤١	الموعظة والنصيحة:
٤٤٤	تفسير الآيات: ١٠٤ - ١٠٧
٤٤٤	الحزم في التعامل مع المشركين:
٤٤٧	تفسير الآيتان: ١٠٨ - ١٠٩
٤٤٧	الكلمة الأخيرة:

سورة هود

٤٥١	«سورة هود»
٤٥١	محتوى هذه السورة وفضيلتها!
٤٥٢	شيبتي سورة هود!
٤٥٣	التأثير المعنوي لهذه السورة:
٤٥٥	تفسير الآيات: ١ - ٤
٤٥٥	الاصول الاربعة في دعوة الأنبياء:
٤٥٨	علاقة الدين بالدنيا:
٤٦٠	تفسير الآية: ٥
٤٦٢	تفسير الآية: ٦
٤٦٢	جميع الاحياء ضيوف مآدبته:

ملاحظات

٤٦٤	تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة!
-----	-------------------------------------

٦٠٥	فهرس الموضوعات
٤٧٠	تفسير الآية: ٧
٤٧٠	الهدف من الخلق:
٤٧٤	تفسير الآيات: ٨ - ١١
٤٧٤	استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم:

بحوث

٤٧٧	١ - الأمة المعدودة وأصحاب المهدي عليه السلام :
٤٧٧	٢ - أربع ظواهر لضيق الافق الفكري:
٤٧٨	٣ - معيار الضعف النفسي:
٤٧٨	٤ - النعم جميعها مواهب:
٤٧٩	٥ - أثران للأعمال الحسنة:
٤٨٠	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
٤٨٠	سبب النزول:
٤٨١	القرآن المعجزة الخالدة:

مركز تحقيق بحوث علوم إسلامي

٤٨٥	جميع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة:
٤٨٩	تفسير الآيتان: ١٥ - ١٦

ملاحظات

٤٩٣	تفسير الآية: ١٧
-----	-----------------

بحوث

٤٩٦	١ - ما المقصود «بالشاهد» في الآية؟
٤٩٧	٢ - لماذا أُشير إلى التوراة فحسب؟
٤٩٨	٣ - من هو المخاطب في قوله: (فلاتك في مرية منه)؟
٤٩٩	تفسير الآيات: ١٨ - ٢٢

٦٠٦ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

أخسر الناس أعمالاً: ٤٩٩

تفسير الآيتين: ٢٣ - ٢٤ ٥٠٤

ملاحظات

تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨ ٥٠٧

قصة نوح المشيرة مع قومه: ٥٠٧

تفسير الآيات: ٢٩ - ٣١ ٥١٢

ما أنا بطارد الذين آمنوا: ٥١٢

ملاحظات

١ - أولياء الله ومعرفة الغيب ٥١٥

٢ - مقياس معرفة الفضيلة: ٥١٦

٣ - معنى علم الغيب في القرآن ٥١٧

تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥ ٥١٨

كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟! ٥١٨

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

ملاحظات

تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٩ ٥٢٤

بداية النهاية: ٥٢٤

ملاحظات

١ - التصفية لا الانتقام ٥٢٨

٢ - علائم المستكبرين: ٥٢٨

٣ - سفينة نوح: ٥٢٩

تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣ ٥٣١

شروع الطوفان: ٥٣١

بحوث

- ١- هل كان طوفان نوح مستوعباً للعالم؟ ٥٣٥
- ٢- هل تُقبل التوبة بعد نزول العذاب؟ ٥٣٧
- ٣- دروس تربوية من طوفان نوح: ٥٣٨
- أ- تطهير وجه الأرض: ٥٣٨
- ب- لم كان العقاب أو الطوفان؟ ٥٣٩
- ج- اسم الله على كل حال وفي كل مكان ٥٣٩
- د- المرتكزات الجوفاء: ٥٤٠
- هـ- سفينة النجاة: ٥٤١
- تفسير الآية: ٤٤ ٥٤٢
- نهاية الحادث: ٥٤٢
- أين يقع الجودي؟ ٥٤٤
- تفسير الآيات: ٤٥- ٤٧ ٥٤٧
- حادثة ابن نوح المؤلمة: ٥٤٧



- ١- لم كان ابن نوح «عملاً غير صالح»؟ ٥٤٨
- ٢- دائرة الوعد الإلهي ٥٤٩
- ٣- هناك حيث تنقطع العلائق ٥٥٠
- ٤- المسلمون المطرودون ٥٥١
- تفسير الآيتان: ٤٨- ٤٩ ٥٥٣
- هبوط نوح بسلام: ٥٥٣
- الآية الأخيرة تشير إلى عدة مسائل: ٥٥٦
- تفسير الآيات: ٥٠- ٥٢ ٥٥٧
- محطّم الأصنام الشّجاع: ٥٥٧

بحوث

- ١- التوحيدُ أساس دعوة الأنبياء: ٥٥٩

٦٠٨ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / ج ٦

- ٢- قادة الحق لا يطلبون أجراً من أتباعهم..... ٥٦٠
٣- الذنب وهلاك المجتمعات ٥٦١
٤- ما المراد من قوله تعالى: (ويزدكم قوةً إلى قوتكم)..... ٥٦٣
تفسير الآيات: ٥٣- ٥٧ ٥٦٤
قوة المنطق: ٥٦٤

ملاحظات

- تفسير الآيات: ٥٨- ٦٠ ٥٦٩
اللعن الأبدى على القوم الظالمين: ٥٦٩

بحثان

- ١- قوم عاد من منظار التاريخ..... ٥٧٣
٢- اللعن الدائم الأبدى على «عاد»: ٥٧٥
تفسير الآية: ٦١ ٥٧٧
قصة ثمود: ٥٧٧
الإستعمار في القرآن وفي عصرنا الحاضر: ٥٧٩
تفسير الآيات: ٦٢- ٦٥ ٥٨١
ناقة صالح: ٥٨٢
العلاقة الدينية: ٥٨٥
تفسير الآيات: ٦٦- ٦٨ ٥٨٨
نهاية ثمود «قوم صالح»: ٥٨٨

ملاحظات

- فهرس الموضوعات ٥٩٢

